روايات مصرية

زهور
124

وعدنا لنلتقى

شريف شوقى

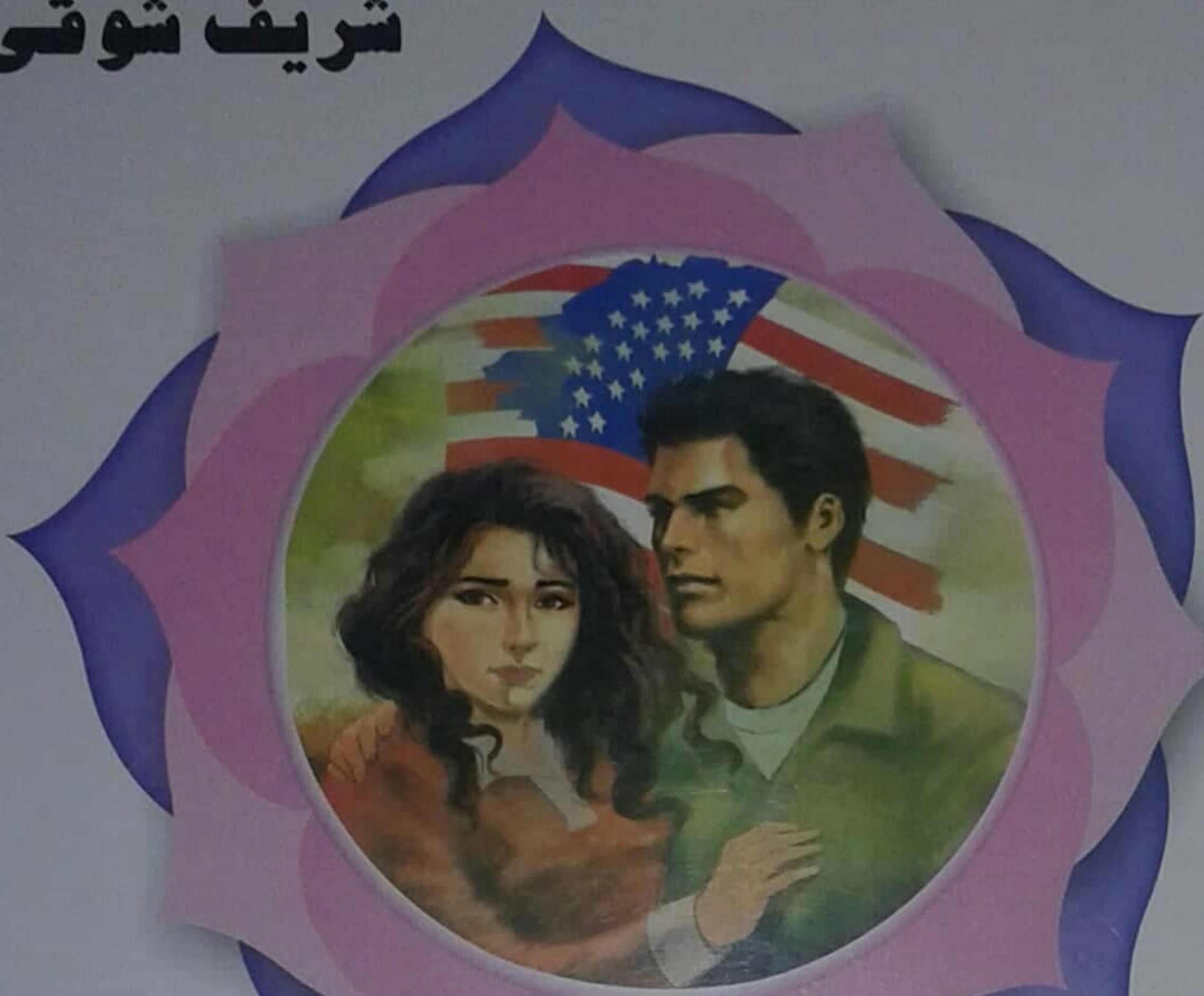

www.riwaya.ga

www.riwaya.ga

راقب (حسام) الفتاة الجالسة إلى المائدة عن يمينه فى مطعم وكافيتريا روچيه مبتسمًا .

كانت تحاول معرفة بعض أنواع الأطعمة التى تضمنتها القائمة التى قدمها لها النادل دون أن تسعفها لغتها الفرنسية الركيكة فى توضيح ما تريده .

بينما بدا النادل المسكين فى حيرة من أمره محاولاً فهم ما تريده .

ورآها تتلفت حولها قائلة بلسان عربى واضح :

ـ لا أدرى كيف أجعلك تفهم ؟ هل تتحدث الإنجليزية ؟

لكنه هز رأسه بالنفى .

فغادر مائدته متوجهًا إليها .

حيث تناول القائمة من يدها قائلاً :

ـ تسمحى ؟

نظرت إليه بدهشة تمتزج بالبشاشة قائلة :

ـ هل تتحدث العربية ؟

أومأ برأسه قائلاً :

ـ كما ترين .. ما هو الصنف الذى ترغبينه ؟

www.riwaya.ga

أشارت إلى الصنف الذى يحتل المرتبة الرابعة فى القائمة قائلة :

ـ هذا .. لكنى أريد معرفة مكوناته أولاً وطريقة إعداده .

وسرعان ما تحول إلى النادل مشيرًا إلى ما طلبته ليترجم ما قالته بفرنسية سليمة .

وقد انبسطت أسارير الرجل فأخذ يشرح له بالتفصيل مكونات الطعام الذى اختارته وطريقة تسويته فتحول إليها ليترجم بدوره ما قاله النادل .

بينما أحست بشىء من الحرج لما سببته من ارتباك وللطريقة التى أسهب بها فى الشرح فوافقت على الفور رغم عدم استساغتها لمكوناته .. بينما أسرع الرجل لتلبية طلباتها بعد أن وجد أخيرًا من ينهى تلك المشكلة ويمنحه الفرصة لشرح مزايا الطعام الذى طلبته .

أما الفتاة فقد تحولت بنظراتها إلى الشاب الفارع القوام صاحب الملامح الوسيمة والذى تشوب بشرته سمرة خفيفة تزيده جاذبية لتقول له بامتنان :

ـ أشكرك .. فى الحقيقة أنا لا أعرف إلا القليل من اللغة الفرنسية وإن كنت أجيد الإنجليزية إجادة تامة .

ابتسم لها قائلاً :

ـ هذا ما تبينته .. على أية حال أنا لم أفعل شيئًا .

ـ هل تسمح لى بأن أدعوك لتناول الطعام معى ؟

قال دون أن تفارقه ابتسامته :

ـ شكرًا لك .. لكنى تناولت طعامى بالفعل .. وأشرب الشاى الآن .

واستدار عائدًا إلى ماندته وهو يتساءل فى حيرة قائلاً لنفسه :

ـ متى رأيت هذه الفتاة من قبل ؟

كان لديه إحساس مبهم أنه التقاها من قبل .

فهذا الوجه الوردى الذى يشع حيوية .. وتلك العينان العسليتان الناعستان والابتسامة التى تغالب خجلها .

كل ذلك يذكره بفتاة ما أو بالأحرى صبية صغيرة عرفها ذات يوم وإن عجزت ذاكرته عن تجميع صورتها كاملة فى ذهنه .

أخذ يرمقها بنظرات مختلسة حينما فاجأته بدورها بالتفاتة مباغتة تلاقت فيها عيناهما .. وقد بدا له أنها هى الأخرى تشعر بشىء من الحيرة تجاهه .

وسرعان ما قرر إرضاء فضوله فعاد إلى ماندتها ليسألها قائلاً :

ـ معذرة لتطفلى لكنى أشعر بأننى أعرفك .. ألم يسبق لنا أن التقينا من قبل ؟

رفعت بصرها إليه قائلة :

ـ كنت أرغب أن أسألك نفس السؤال فوجهك لا يبدو غريبًا لدى .. لدى شعور أنك ...

احتبست الكلمات فى حلقها واتسعت حدقتاها فجأة وهى تهتف قائلة :

ـ (حسام) .. أجل .. أنت (حسام حلمى) جارنا القديم فى بيروت .

علت وجهه الدهشة وهو يهتف بدوره قائلاً :

ـ وأنت (دعاء خطاب) .. لقد تذكرت الآن .

وكان النادل قد أحضر الوجبة التى طلبتها فتوقفا عن الاستطراد فى الكلام للحظة قبل أن تعاود الحديث قائلة :

ـ يا لها من مفاجأة .

ابتسم قائلاً :

ـ حقًا إن العالم صغير .

ـ أظن يمكننى أن أدعوك الآن لتشاركنى مائدتى .

جلس وهو يحيطها بنظراته والدهشة ما زالت تعلو وجهه قائلاً :

ـ آخر مرة رأيتك فيها كنت صبية صغيرة ذات ضفيرتين قصيرتين .

ابتسمت قائلة :

- آخر مرة رأيتنى فيها كنت فى الثالثة عشرة من عمرى .

وصمتت برهة وهى تتأمله قبل أن تستطرد قائلة :

- أما أنت فلم تتغير كثيرًا عما كنت عليه .

- كيف ؟ لقد كنت أكبرك بأربعة أعوام حينما تركنا بيروت أنا وأسرتى .. كنت فى السابعة عشر من عمرى وقد أصبحت الآن فى التاسعة والعشرين.. لا بد وأن أكون قد تغيرت .

قالت وهى تتفحصه بعينيها :

- ربما طالت قامتك بعض الشىء .. ويبدو أنك تغلبت أيضًا على ما كنت عليه من نحافة .. وأصبح وجهك أكثر رجولة عن ذلك الصبى اليافع الذى عرفته من قبل .

لكن ما زالت عيناك تحمل تلك النظرة التى تبدو شاردة أحيانًا ، ولك نفس الابتسامة التى عاهدتها فيك من قبل .

قال ضاحكًا :

- من الغريب أننى لم أتعرف عليك من البداية .

ضحكت بدورها قائلة :

- اثنا عشر عامًا ليس بالشىء الهين فلابد وأن تحدث بعض التغييرات فى ملامح المرء .. وإن كنت ما زلت مصرة على أنها لم تغير فيك الكثير .

تأملها قليلاً وقد أطلت من عينيه نظرة إعجاب قائلاً :

10

- بالنسبة لى أرى أنها أحدثت اختلافًا كبيرًا .. فهناك فرق كبير بين تلك الطفلة ذات الأعوام الثلاثة عشر وتلك الحسناء الجالسة أمامى الآن .

أطرقت بخجل قائلة :

- أشكرك على هذه المجاملة اللطيفة .

- أنا لا أجاملك على الإطلاق .. فقط أصف ما أراه أمامى .

وأشار إلى الطعام قائلاً :

- لا تدعينى أعطلك عن تناول طعامك .. إلا إذا كان وجودى يشعرك ببعض الحرج ..

قالت سريعًا :

- بالعكس .. أنا مسرورة أننى وجدت شخصًا أعرفه ويمكننى التحدث معه هنا .

- لكن ما الذى أتى بك إلى (باريس) ؟

- جئت فى رحلة سياحية قصيرة إلى فرنسا وكان من المتعين أن ترافقنى فيها إحدى صديقاتى ممن يجدن الفرنسية لكن ظروف ألمت بها قبل سفرنا بيوم واحد حالت دون مرافقتها لى .

وابتسمت مردفة :

- وها أنت قد أخذت فكرة واضحة عن مدى إجادتى للغة الفرنسية

وما ترتب عليه من صعوبة تعاملاتى هنا .

- وما هى الفترة التى تنوين قضاءها فى فرنسا ؟

- من المفترض أن تكون عشرة أيام لكن يبدو أننى سأضطر إلى اختصارها بعد الأيام الثلاثة التى أمضيتها فى (باريس) بمفردى وبعد اعتذار صديقتى عن مرافقتى فى تلك الرحلة .

وبدأت تتناول طعامها بتمهل فى حين كانت عيناه تتفحصانها بتمعن شديد وهو يغمغم قائلاً :

- اثنا عشر عامًا .. لقد أعادت لى رؤيتك ذكرى أعوام جميلة انقضت من عمرنا .

- أنا أيضًا لم أنس تلك الأيام الجميلة التى عشتها بين ربوع لبنان .. كانت أجمل سنوات عمرى رغم صغر سنى وقتها .

انطلقت زفرة طويلة من صدره قائلاً :

- ليتنا بقينا صغارًا ولم تتقدم بنا السنين على هذا النحو .

قالت له مبتسمة :

- تتحدث وكأنك تخطيت الستين من عمرك .

قال وفى صوته بعض المرارة :

- لقد أكسبتنى الحياة خبرات تتجاوز ضعف عمرى .. لكنها خبرات مؤلمة

مع الأسف .

تمعنت فى وجهه قائلة :

- يبدو أنك عشت تجارب قاسية خلال السنوات الماضية من عمرك .

- أقسى مما تتخيلين .

- كيف ؟ هل يمكنك أن تحكى لى ؟

- لا داع لأن أصدع رأسك بذلك وأفسد شهيتك .

- على أية حال .. أنا أيضًا أرى أن الحياة قد فقدت الكثير من براءتها التى كنا نراها عليها ونحن صغار .

وتوقفت عن الاستمرار فى تناول طعامها مستطردة :

- أقول لك بصراحة .. أنا لا أستسيغ هذا الصنف من الطعام .. يبدو أننى أسأت الاختيار .

- هل تحبين أن أرشح لك صنفًا آخر .

- بل أفضل أن نغادر هذا المطعم الآن لنتحدث معًا بحرية أكثر ونستعيد ذكريات الماضى .

يمكننى أن أكتفى بإحدى الشطائر من أى مطعم للوجبات السريعة .

- كما تشائين .

أشارت للنادل كى تدفع الحساب .. لكنه اعترض قائلاً :

ـ دعينى أدفع عنك هذه المرة .

ـ كلا لا أسمح لك بذلك .. فأنا التى طلبت هذا الطعام الذى لم آكله .

ـ لا تنسى أننى ما زلت رجلا شرقيًا .. صحيح أننا فى (باريس) لكن ليس من المحتم علينا أن نتصرف كالفرنسيين .

ابتسمت قائلة وهى تسير إلى جواره :

ـ فى الحقيقة لم يعد كثير من الرجال الشرقيين يتبعون هذا العرف الذى تتمسك به .. لكن يبدو أنك لم تتخل عن عاداتك القديمة .

هل تذكر حينما ذهبنا لتناول المثلجات فى محل الدولفين ببيروت ؟

يومها أصررت على أن تدفع ثمن المثلجات رغم أننى كنت صاحبة الدعوة ورغم أن أبى أنقدنى مبلغًا كبيرًا من المال لأنفقه كيفما أشاء فى حين لم يكن معك يومها إلا ما يكفى لدفع ثمن المثلجات بالكاد .

ضحك قائلاً :

ـ واضطررتك لأن تعودى معى إلى المنزل سيرًا على الأقدام رغم أن المسافة كانت بعيدة ما بين محل المثلجات والمنزل .

ـ هذا لأنك صممت أيضًا أن لا أدفع ثمن تذكرتى الباص وقلت إننى لو أردت ركوب الباص فيتعين علىّ أن أركبه بمفردى وأتركك تواصل السير بمفردك .. كنت عنيدًا .

أقول لك بصراحة .. لقد أسرنى ذلك لأنى أردت أن نسير معًا .. أقضى

14

بصحبتك أطول وقت ممكن .

ارتبك قليلاً .. وقد أيقظت كلماتها مشاعر قديمة لديه ظن أنها فارقته منذ أمد بعيد .

فطالما كان مغرمًا بتلك الصبية الصغيرة رغم طفولة مشاعرهما فى تلك الفترة .

وهو لا يذكر أنه أحس بمثل تلك المشاعر خلال الاثنا عشر عامًا الماضية رغم كثرة ما عرفه من فتيات .

أخذا يتجولان معًا فى ضواحى (باريس) مثلما كانا يفعلان من قبل فى متنزهات (بيروت) فى رفقة أسرتيهما أو بمفردهما خاصة بعد توطد العلاقة بين الأسرتين .

وبدا وكأنهما يستعيدان إحساسًا إنسانيًا افتقداه طويلاً .

كانت (دعاء) قد جاءت إلى (لبنان) بصحبة والديها حينما التحق أبوها بالعمل فى السفارة العراقية ببيروت كملحق ثقافى واستأجرت منزلاً مجاورًا لذلك المنزل الذى كانت تقيم فيه عائلة (حسام) .

وما زال يذكر أول مرة وقعت فيها عليها عيناه .

كان يلعب الكرة مع صديق له فى الأرض الأسفلتية المجاورة لحديقة منزله حينما سقطت الكرة فى حديقة منزلها ، فاضطر لتسلق السور الفاصل بين المنزلين لاستعادة كرته .

لكنه فوجئ بكلب شرس ضخم الحجم يهاجمه ويكاد ينقض عليه لولا

ظهورها المفاجئ لتأمره بحزم على التراجع .

كانت صبية صغيرة فى العاشرة من عمرها وهو قد تخطى الثالثة عشر بعدة أشهر .

وبالرغم من تلك السن الصغيرة التى تغلب عليها البراءة وجد قلبه يخفق بشدة لرؤياها .

وقد أعادت له الكرة قائلة :

ـ أظنك جئت لاستعادة هذه .

أخذها من يدها دون أن ينبس ببنت شفة .

فقد حال انبهاره بتلك الطفلة الجميلة ذات الشعر الأسود الفاحم والذى تتدلى خصلاته الناعمة على جبينها ولديها تلك العينان العسليتان والبشرة الوردية دون قدرته على النطق .

بينما استطردت قائلة بأسلوب يتخطى سنوات عمرها القليلة :

ـ كان يمكنك أن تأتى لاستعادتها من الباب بدلاً من القفز من فوق السور وتعريض نفسك للخطر .

قال متلعثمًا :

ـ آسف .. وأشكرك ..

قادته إلى الباب الخارجى وهى تسأله قائلة :

ـ لقد رأيتك عدة مرات فى المنزل المجاور .. ولكنك كنت تبدو دائمًا

بمفردك أو بصحبة أحد والديك .. أليس لك أشقاء صغار أو كبار ؟

ـ كلا .. أنا الابن الوحيد لوالدى .

ـ أنا اسمى (دعاء) ولى شقيق يكبرنى بعامين فقط اسمه (علاء) .

صافحها قائلاً :

ـ أهلاً يا (دعاء) .

ـ وأنت ما اسمك ؟

ـ (حسام) .

ـ أتمنى لو صرنا أصدقاء .. فقد جئنا إلى هنا منذ شهر واحد فقط ولم نتمكن من عمل أى صداقات مع أحد بعد .

قال مبتسمًا :

ـ هذا شىء يسعدنى كثيرًا .

لم يكن جمال وجهها الملائكى هو الذى أثار إعجابه فقط .. بل أسلوبها الهادئ فى الحديث وثقتها بنفسها بما ينم عن نضج مبكر .

بدت بالنسبة له وقتها جريئة بأكثر مما يجب رغم أن ملامحها الطفولية لم تكن توحى بذلك .

ومنذ أن تعارفا وصارا صديقين وهو يراها تأخذ زمام المبادرة فى أمور كثيرة .

كان ذلك يغضبه أحيانًا ويدفعه إلى التصرف معها بعناد وتطرف بعض الوقت .

خاصة أنها أشعرته دائمًا بأنه أقل منها جرأة وقدرة على التعبير عما

يجيش فى صدره نحوها من مشاعر .. لكنه كان يجد نفسه مستسلمًا لإرادتها فى أوقات كثيرة .

وحتى فى هذه المرة حينما التقيا مجددًا بعد فراق سنوات طويلة ها هى تأخذ زمام المبادرة وتدعوه لمرافقتها فى نزهة .. وها هو ما زال يفتقد الجرأة الكافية ليصارحها بحقيقة مشاعره تجاهها خلال سنوات الصبا البعيدة رغم أنه لا تنقصه الجرأة تجاه غيرها من الفتيات اللاتى عرفهن فى أوقات سابقة .

وتداعت الذكريات فى ذهنه عن تلك الفترة التى جمعت بينه وبين (دعاء) قبل أن يتفرقا .

★ ★ ★

الفصل الثانى

توطدت الصلة بينهما طوال الفترة التى عاشتها (دعاء) فى (لبنان) ونمت مع الأيام حتى أن أحدهما لم يكن يستطيع أن يمر عليه يوم دون أن يلتقى بالآخر .

كان يظنه حبًا طفوليًا ستمحوه الأيام والسنين .

ثم غادرت (دعاء) مع والديها ذات يوم بعد أن التحق أبوها بالعمل فى إحدى السفارات فى بلد آخر .

ومرت السنين بعدها عرف خلالها الكثيرات وازداد نضجًا ورجولة عن ذلك الفتى اليافع الذى كان عليه يومًا دون أن تمحى صورتها من قلبه ووجدانه .

لم يجد تسمية حقيقة لتلك المشاعر التى ظلت ترافقه نحوها بقية عمره فلا يمكن تسميتها حبًا بالمعنى الصادق لتلك الكلمة .

حيث إن مشاعر أىّ منهما لم تكن على درجة من النضج تسمح بادعاء ذلك .

لكنها كانت المرة الأولى بلا شك التى تفتحت فيها أحاسيسه تجاه إنسانة ما .

ولا يظن أنه عرف فى حياته بعدها أحاسيس مماثلة .

تحول إليها وهما يسيران معًا ليسألها قائلاً :

ـ أما زال والدك يعمل فى المجال الدبلوماسى ؟

ـ والدى توفى منذ سبعة أعوام ولحقت به والدتى بعد شهرين فقط من وفاته .

ـ أنا آسف .. رحمهما الله .

واستطرد قائلاً :

ـ وماذا بشأن أخوك (علاء) ؟

ـ (علاء) عاد إلى (العراق) وهو يعيش ويعمل هناك .

ـ لكن ما الذى أتى بك إلى (باريس) ؟ لا أظن أن الظروف التى تعيشها (العراق) حاليًا تسمح برحلات سياحية كتلك التى أتت بك إلى هنا .

ـ لقد غادرت (العراق) قبل بداية الغزو الأمريكى بعام واحد فقط بعد أن حصلت على منحة دراسية للحصول على الماچيستير من إحدى الجامعات الأسكتلندية فى الأدب الإنجليزى .

وبعد أن حصلت على الماچيستير بتقدير مرتفع التحقت بالعمل فى الجامعة هناك .. وقررت البقاء فى أسكتلندا بصفة دائمة خاصة بعد سقوط بغداد على يد الاحتلال الأمريكى .

وهذه الرحلة إلى فرنسا هى منحة حصلت عليها من الجامعة كمكافأة على بعض المجهودات التى قدمتها لصالح إدارة الأبحاث الثقافية بالجامعة .

- إذن فأنت تقيمين فى أسكتلندا بصفة دائمة .
- ولدى شقة متواضعة هناك .
- وهل ما زال الاتصال بينك وبين (علاء) قائمًا ؟
- نتصل ببعضنا من آن لآخر .. أنت تعرف أن الوضع فى (العراق) أصبح سيئًا للغاية وفى كل شىء حتى فى مجال الاتصالات .

وما لبثت أن تحولت إليه لتسأله :

- أظن أنه جاء دورى الآن لأسألك .. ما الذى جاء بك إلى (فرنسا) ؟
- أنا أيضًا توفى والدى ولم يعد لى أحد فى لبنان .. لذا جئت لأجرب حظى فى (فرنسا) .

عملت مراسلا صحفيًا بعدة مؤسسات صحفية فترة من الوقت ثم استغنوا عن خدماتى .. سافرت بعدها إلى كندا حيث أقمت هناك لبضعة أشهر دون أن أحقق نجاحًا ملموسًا فى المكان الذى عملت فيه فعدت إلى (فرنسا) ثانية واكتفيت بالعمل فى إحدى الشركات التجارية براتب مقبول يكفى لإعاشتى حياة لا بأس بها .

المهم أننى وطدت نفسى على أن أتعامل مع الواقع وأؤجل طموحاتى وأحلامى فترة من الوقت .

نظرت إلى أصابعه قائلة :

ـ أرى أنك لم تتزوج بعد .

ضحك قائلاً :

ـ بعد كل ما أخبرتك به عنى ... شخص غير مستقر .. يتنقل من عمل إلى آخر دون وظيفة مستقرة ويعيش حياة بوهيمية نوعًا ما .. كيف لمثله أن يفكر فى الزواج ؟

هذا بالإضافة إلى أننى لم أجد الفتاة المناسبة بعد .

واستطرد قائلاً وهو ينظر إليها :

ـ وأنت ألم تتزوجى ؟

ابتسمت قائلة :

ـ لم ألتق بالرجل المناسب بعد .

ـ تخيلى عدنا لنلتقى بعد كل تلك السنين .. وأين ؟ فى (باريس) .

ـ هل تصدقنى لو قلت لك أننى كنت أشعر دائمًا أننا سنعود لنلتقى يومًا ما ؟

ـ لقد حاولت الاتصال بك ومراسلتك بعد سفرك لكنى لم أنجح فى ذلك .

ـ لقد أقمنا فى بغداد عشرين يومًا فقط بعد مغادرتنا لبنان وبعدها سافرنا إلى إيطاليا بعد أن عين أبى فى سفارتنا هناك وكنت قد فقدت هاتفى وعنوان مراسلاتك أثناء السفر .

وبعد أن أقمنا فى إيطاليا لمدة عامين سافرنا مرة أخرى إلى أستراليا . أنت تعرف الطريقة التى يحيا بها العاملون فى المجال البلوماسى وأسرهم .

ثم إننى كنت لا أزال فتاة صغيرة لا تجيد التصرف على النحو الأمثل .. وبالرغم من ذلك حاولت مراسلتك على عنوانك فى (بيروت) بعد أن حصلت عليه من والدتى .. لكنى لم أتلق منك أى رد على رسائلى ..

ـ ونحن أيضًا انتقلنا من المنزل الذى كنا نقيم فيه إلى منزل آخر فى الضواحى .

كنا صغارًا كما تقولين لكن من الغريب أن تنقطع الصلات بين الأسرتين على هذا النحو برغم توطد العلاقة بينهم حينما كنا جيران .

ـ ظروف تنقلات أبى ومرض والدتى الذى صاحبها لفترة طويلة وقف حائلاً دون ذلك .

هز رأسه قائلاً :

ـ وكذلك الأموال التى خسرها أبى فى البورصة كادت تذهب بعقله وقلبت حياتنا رأسًا على عقب .

قالت بأسى :

ـ مع الأسف لقد ولت الأيام الجميلة .

توقف ليتأملها للحظة قائلاً :

ـ حينما رأيتك اليوم أحسست أن تلك الأيام قد عادت من جديد .

تنهدت بعمق قائلة :

ـ ليت ما تقوله صحيحًا .. لكن يبدو أن الزمان يأبى إلا أن يأخذ منا كل ما هو جميل ولا يمنحنا إلا قسوته .

ـ لمَ تلك اللهجة المتشائمة ؟ أنت إنسانة ناجحة فى حياتك العملية .. لديك وظيفة مرموقة وزادتك السنين جمالاً تحسدك عليه الكثيرات .

عادت لتتنهد قائلة :

ـ لكنى أصبحت وحيدة فى هذه الدنيا .. فقدت الأب والأم ..

عاجزة عن العودة إلى وطنى الذى أصبح محتلاً ويعيش كل يوم مأساة متكررة .

عاجزة حتى عن رؤية شقيقى الوحيد والاتصال به والتعرف على مصيره .

صمت برهة قبل أن يعقب قائلاً :

ـ لا شىء يبقى على حاله .. فالزمن كما يأتى لنا بالتعاسة أحيانًا قد يعود ليأتى لنا بالفرح أيضًا .

ابتسمت قائلة :

ـ أحييك على هذا التفاؤل .

ـ لقد أوضحت لك الظروف التى عشتها خلال السنين الماضية وهى لا توحى بالتفاؤل كما ترين .. ومع ذلك ما زالت أتمسك بأحلامى وطموحاتى.

وعاد ليتوقف فجأة قائلاً :

ـ هل يمكن أن تنتظرى قليلاً ؟

نظرت إليه باستغراب وهو يسارع بعبور الطريق إلى الجهة المقابلة ليتوقف أمام محل لبيع المثلجات .

ثم ما لبث أن عاد إليها حاملاً بولتين من الجيلاتى قدم لها إحداهما قائلاً :

ـ بالفستق والفانيليا كما كنت تفضلين دائمًا .

ضحكت قائلة :

ـ أما زلت تذكر ؟

أحاطها بنظراته الدافئة قائلاً :

ـ لم أنس أى شىء يخصك .

انشغلت بلعق الجيلاتى وهى تتجاهل النظر إليه حتى لا يلحظ ارتباكها .

بينما وجد فى نفسه الجرأة ليستطرد قائلاً :

- وأنت .. هل أنستك السنين ما كان بيننا ؟

قالت له بصوت خافت مضطرب :

- كيف أنسى تلك الصداقة الجميلة التى جمعت بيننا ؟ قلت لك إننى كنت أشعر دائمًا أننا سنلتقى ثانيًا .. ألا يكفى هذا لتعرف أننى لم أنس صداقتنا أبدًا ؟

غمغم قائلاً :

- ما بيننا كان أكثر من مجرد صداقة .

رمقته بنظرة فاحصة قائلة :

- ماذا تقصد ؟

أحست بعينيه تكادان أن تنفذا إلى أعماقها وهو يحدجها بنظراته قائلاً :

- كنت أول فتاة تتفتح لها مشاعرى وأحاسيسى .

قالت له مبتسمة :

- لا تنس أننا كنا صغارًا بالقدر الذى لا يمكننا أن نحكم فيه على مشاعرنا حكمًا حقيقيًا .

ـ أظن أن مشاعرنا كانت تسبق أعمارنا فى هذه الفترة .

قالت وقد عاودها الارتباك :

ـ أنا مضطرة لمفارقتك الآن .. فلدى موعد هام مع إحدى صديقاتى فى الفندق الذى أقيم فيه .

قال لها منزعجًا :

ـ لكننا لم ننه كلامنا بعد .

ـ ربما نستكمل حديثنا فيما بعد .. أما الآن فأنا مضطرة لتوديعك .

قال لها ملحًا :

ـ يمكننى أن أوصلك إلى الفندق .

ـ لا داع لذلك فهو قريب من هنا .

ونظرت فى ساعتها بارتباك قائلة :

ـ إننى سعيدة حقًا أن أراك مرة أخرى .

عاد ليلح عليها قائلاً :

ـ سنتقابل ثانية .

لوحت له بيدها وهى تبتعد سريعًا قائلة :

ـ بالتأكيد .

غابت عن عينيه تدريجيًا بينما وقف جامدًا فى مكانه كما لو كان قد أص بالشلل .

لم يدر سر انزعاجه لرحيلها المفاجئ .. وذلك الاحساس الذى انتابه بعد مفارقتها له بأنه عاش للحظات حلمًا جميلاً ثم انتهى فجأة .

وما لبث أن انتفض فى مكانه وقد تنبه لخطئه الفادح .. فهو لم يسألها عن عنوان فندقها أو حتى يعرف رقم هاتفها .

وتملكه إحساس بالحنق الشديد وهو يغمغم قائلاً لنفسه :

- يا لى من أحمق كيف فاتنى ذلك ؟

ووجد نفسه يسرع مهرولاً وهو يحاول اللحاق بها قبل أن تبتعد .. لكنها كانت قد اختفت تمامًا .

ظل يدور حول نفسه وهو فى حالة من الغضب الشديد .

لقد بدا كما لو كان قد عثر على شىء ثمين للغاية ما كاد يجده حتى أفلت من بين يديه .

★ ★ ★

لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير فيها وهو جالس فى نفس الكافيتريا التى التقيا بها أول أمس .

فقد بقيت صورتها ماثلة أمام عينيه منذ هذا اللقاء وهو يتمنى من أعماق قلبه لو مكنه القدر من الالتقاء بها ثانية .

وظن للحظة أن تلك الصورة التى تلاحقه قد تجسدت إلى واقع حينما رأى وجهها يتطلع إليه من خلف زجاج الكافيتريا وهى تلوح له .

لم يصدق ما رآه فى البداية حتى إنه فرك عينيه بأصابعه ظنًا منه أنها تخدعانه . وأن ما يراه غير حقيقى .

لكن سرعان ما تأكد أن عينيه لم تكذبانه وأن تلك الفتاة التى تلوح له من خلف الزجاج هى (دعاء) بالفعل .

انتابته سعادة غامرة ارتسمت ملامحها على وجهه وهو يهب واقفًا ليشير لها بأن تأتى .

لكنها أشارت له أن يغادر الكافيتريا ليقابلها فى الشارع . فغادر مائدته على الفور ليلحق بها على الرصيف المجاور .

تطلع إليها بلهفة عارمة قائلاً :

ـ كنت أظن أننا لن نلتقى ثانية لكنى تمسكت بالأمل .

ابتسمت قائلة :

ـ وأنا كنت أعرف أننى سأجدك هنا .

ـ وكيف عرفت ؟

ـ هل نسيت أنك أخبرتنى فى لقائنا الأخير أنك اعتدت التردد على هذا المطعم لتناول طعامك ؟

قال وهو يسير برفقتها :

ـ لقد ذهبت فجأة دون أن تخبرينى بعنوان فندقك أو حتى رقم هاتفك .

ضحكت قائلة :

ـ أنت لم تسألنى .

ـ فعلاً .. كانت هذه حماقة منى .

ـ وأنا أيضًا شاركتك تلك الحماقة حينما لم أسألك عن عنوانك أو رقم هاتفك .. إذن فنحن متعادلان .

ـ بحثت عنك طوال اليومين الماضيين دون جدوى .

اضطربت قليلاً وقد تبدلت ملامحها وهى تسأله قائلة :

ـ بحثت عنى أين ؟

قال وهو يستغرب اضطرابها المفاجئ :

ـ فى بعض الفنادق الصغيرة والقريبة من المكان الذى افترقنا فيه .

ـ أجهدت نفسك لا داع .. الفندق الذى أنزل فيه أبعد كثيرًا من المنطقة التى بحثت عنى فيها .

ـ لكنك قلت ....

قاطعته قائلة :

ـ أعرف ما قلته لكن الحقيقة هى أننى تعمدت أن أخفى عنك مكانى .

قال وقد ازداد استغرابه :

ـ لماذا ؟

★ ★ ★

الفصل الثالث

هزت كتفيها قائلة :

ـ لا أدرى .. ربما لأنى كنت أخشى من لقاء آخر يجمعنا .. خاصة بعد أن تملكنى شعور بالقلق فى نهاية لقائنا .

ـ لم ألحظ ذلك فقد أعربت عن سعادتك وقتها بلقاء شخصى تعرفين وقلتى أن هذا سيساعدك على تبديد ما تستشعرينه من وحدة واغتراب فى مدينة كبيرة كباريس .

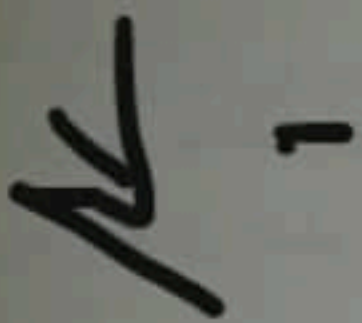

نظرت إليه قائلة :

ـ لكنك لست أى شخص يا (حسام) .

وواصلت سيرها وهى تستطرد قائلة :

ـ لا أنكر أننى سعدت حينما التقيتك .. لكنى فكرت فى نهاية لقائنا فيما سيئول إليه الحال فيما بعد .

فبعد أيام قليلة سنضطر لأن نفترق من جديد مثلما حدث من قبل معك ومع كل من أحببتهم وكانوا قريبين منى .

تأملها قائلاً :

ـ هل تريننى قريبًا منك حقًا ؟

ـ ألم تفهم بعد ؟ كان يتعين عليك أن تكون مدركًا أنك لست وحدك الذى تفتحت مشاعره لأول مرة على هذا الإحساس المبهم الذى عرفناه سويًا فى بدايات عمرنا .

أجل كنا صغارًا لكن إحساسى نحوك كان أكبر بكثير من سنوات عمرى القليلة .. احساس لم أعرفه سوى مرة واحدة فقط طوال حياتى .

وحينما غادرت (لبنان) ظللت لفترة طويلة عاجزة عن التغلب على ذلك الفراغ الكبير الذى خلفه فراقنا .

وحينما كبرت حاولت إقناع نفسى بأن الأمر لا يعدو كونه مجرد مشاعر مراهقة لصبية صغيرة يتعين علىَ أن ألقى به وراء ظهرى .

لكننى لم أنجح فى ذلك .. وبقيت تلك المرحلة من عمرى تطاردنى حتى الآن .

بقيت أحلم رغم عدم معقولية الحلم بأن الحياة ستجمع بيننا يومًا ما من جديد .

وها نحن قد التقينا .. لكن من المتيقن أننا سنضطر لأن نفترق ثانية .. وهذا إحساس لا أرغب فى معايشته وتحمل تبعاته مرة أخرى .

يكفينى فراق الأب والأم والشقيق .. لا أريد مزيدًا من الوجع .

خفق قلبه بشدة .

هذا القلب الذى ظن أن دقاته قد خمدت منذ زمن طويل .

قال لها بنبرة هادئة :

- وبالرغم من ذلك فها أنت قد سعيت لنلتقى من جديد .

أطرقت قائلة باستكانة :

- وهذا ما يثبت أننى لست قوية بالقدر الكافى وأن الصبية الصغيرة التى كنتها يومًا ما هزمت الفتاة الناضجة التى أصبحت عليها الآن وجعلتها ترضخ لرغبتها فى لقائك مجددًا .. وهو ما يخيفنى أكثر .

قال لها مبتسمًا :

- لا يوجد ما يدعو للخوف .

رفعت بصرها إليه قائلة :

- أريدك أن تصارحنى بالحقيقة .. هل أخطأت باستسلامى لمشاعرى القديمة ؟ أم أننى لست ناضجة بالقدر الذى يسمح لى بالتغلب على إحساس طالما حاولت التغلب عليه ؟

قال والدفء يشيع فى نبراته :

- لا هذا .. ولا ذاك .. أنا أيضًا عايشت ما عايشته وحاولت تفسيره على أنه مجرد حنين للماضى .. وأن تلك الذكرى القديمة التى عرفناها سويًا قد تلاشت من خيالى .

لكن حينما التقيتك وجدت أننى كنت واهمًا وأن الماضى بكل ما احتواه من أحاسيس وذكريات قد عاد ليستيقظ مرة واحدة .. وأنك ما زلت تحيين فى وجدانى وربما دون أن أدرك ذلك .

فكل ما عرفناه من مشاعر قديمة ظننا أنها مجرد لهو صغار ، عادت لتتجدد مرة أخرى .

وكأن أعمارنا لم تضف إليها كل تلك السنوات الاثنا عشر .

لقد كدت أجن وأنا أبحث عنك وأتنقل من فندق لآخر علنى أجدك أو أعثر على من يرشدنى إليك .. وقد أزعجنى للغاية أن نعود لنفترق على هذا النحو .

قالت وفى ابتسامتها قدر من التأثر :

- يبدو الأمر وكأننا نعيش أحداث رواية رومانسية غير مقنعة أن نعود فنلتقى على هذا النحو لنجد أن كلا منا ما زال يحمل للآخر تلك المشاعر القديمة .

بادلها ابتسامتها قائلاً :

- وأكتشف أننى ما زلت مفتونًا بتلك الصغيرة المشاغبة .

قالت وهى تتطلع إليه بنظراتها :

- هل تعنى ما تقوله حقًا ؟

- بكل الصدق الذى أحسه الآن تجاهك .

أدارت له ظهرها قائلة :

- بقدر ما فرحت حينما التقينا من جديد بقدر ما قلت لنفسى ليتنا ما تقابلنا .

وضع يده على كتفها قائلاً :

- لِمَ تقولين ذلك ؟

- لأننى أخشى هذا النوع من المشاعر الذى لا يجلب لصاحبه سوى الأذى والأسى .

أدار وجهها إليه وهو يبتسم قائلاً :

ـ الحب يأتى بالسعادة لا الأسى .. أنت لا تعرفين مقدار سعادتى منذ أن وجدتك .

ـ وإلى متى ستدوم هذه السعادة . لقد عرفت السعادة معك ونحن صغار وعرفتها كذلك مع والدى وشقيقى ..
وفى النهاية وجدت نفسى وقد فقدت كل من أحببتهم .

ـ وفاة والدك شىء قدرى كلنا مررنا وسنمر به دون أن نملك من الأمر شيئًا .. وكذلك الظروف التى حالت بينك وبين (علاء) وبالنسبة لنا أيضًا .. الفرق فى حالتنا هو أن القدر الذى فرق بيننا عاد ليجمعنا من جديد وهو ما يستحق أن نسعده به لا أن نوصد قلوبنا فى وجهه .

أنا أيضًا عايشت تجارب قاسية .. وحتى وقت قصير كانت لى نفس أفكارك تقريبًا .. لكنى أصبحت أعرف الآن وأكثر من أى وقت مضى أنه لا معنى للاستسلام لتلك المخاوف والأفكار .

قالت وكأنها تحاول مقاومة ضعفها :

ـ (حسام) .. لا تنسى أن كلانا يعيش فى هذه المرحلة من عمره مشاعر الوحدة والإحساس بالاغتراب بعيدًا عن الوطن وأيًا كان الأشخاص الذين عرفناهم وصادقناهم فى أوروبا فما من أحد منهم استطاع أن ينتزع منا هذا الإحساس .. وأنا بالذات أتفهم ذلك أكثر من أى شخص آخر بحكم سفرياتى

المستمرة مع والدى خلال فترة عمله واضطرارنا للإقامة فى عدة دول مختلفة وعدم الاستقرار فى الوطن لفترة طويلة .

ـ ما الذى ترمين إليه من وراء ذلك ؟

ـ ما أخشاه هو أن يكون الإحساس بالوحدة والغربة بالإضافة إلى حنين الماضى وذكرياته قد ضلل مشاعرنا ودفعنا إلى التجاذب على هذا النحو .

قال لها مستنكرًا :

ـ لِمَ كل تلك التعقيدات والإفراط فى المخاوف ؟ أتستكثرين علينا مشاعرنا ؟ أم أنك تخشيننى إلى هذا الحد ؟

ـ بل أخشى أن نكون قد أسرعنا فى الإفصاح عن مشاعرنا .

حاصرها بنظرة عميقة قائلاً :

ـ ألا تصدقين أننى أحبك ؟

ـ وإذا صدقتك وصدقت نفسى أيضًا فى أننى أبادلك هذا الحب فما الذى سيئول إليه الأمر فيما بعد ؟

بقى صامتًا لبرهة قبل أن يقول :

ـ ما تئول إليه أى علاقة شريفة تجمع بين متحابين .. الزواج بالطبع .

حدقت فى وجهه وقد بدا وكأنها قد فوجئت بما قاله ، ثم ما لبثت أن

قالت :

ـ نتزوج .. هذا يبدو متسرعًا للغاية .

ـ بل قولى متأخرًا للغاية فمشاعرنا التى عرفناها سويًا عادت لتعلن عن نفسها من جديد بعد اثنى عشر عامًا من الفراق .

وهو ما يدل على مدى قوة وصلابة تلك المشاعر التى لم تبدلها الأيام والسنين .

ـ لكن الزواج لا تكفيه العاطفة فقط .. فهناك حسابات أخرى ينبغى علينا التفكير فيها مثل الطباع والميول التى قد تختلف بالنسبة لفتى وصبية صغيرة عما صارا إليه الآن بعد تقدم العمر بهما .. وكذا الظروف المحيطة بكلانا .

كل تلك أمور يتعين أن نفكر فيها قبل أن تقدم على أهم مشروع فى حياة المرء كالزواج .

قال لها مستاءً :

ـ مشروع .. لم أكن أظن أنك تفكرين بتلك الطريقة العملية فى أمر يتعلق فى الأساس بالمشاعر .

ـ ألم أقل لك أن السنين ربما غيرت فينا الكثير ؟ ها أنت قد لاحظت بنفسك التغييرات التى فعلتها بى رحلة الزمن .

نظر إليها مليًا وهو يقول :

ـ أنت تحيرينني ولا أستطيع أن أفهمك .. فلا أدرى ما إذا كنت تحبيننى حقًا أم لا ؟ ولا أعرف ما إذا كنت تخشيننى أم تخشين من نفسك ؟ فكل ما تقولينه عن توافق الطباع والميول وتلك الظروف التى تحيط بكلامنا لا يقنعنى كثيرًا .

قالت له بهدوء :

ـ لقد أسعدنى بالطبع أن تطلب الاقتران بى .. لكن كل ما أريده هو تأجيل الأمر بعض الوقت وأن نعطى أنفسنا فرصة كافية للتفكير وأن نتعرف على بعضنا أكثر من جديد قبل الإقدام على الزواج .

قال لها غاضبًا :

ـ كما تشائين ما دامت هذه هى رغبتك .

أمسكت بذراعه قائلة :

ـ لا تغضب منى يا (حسام) .. ثق أن الأمر لا يتعلق بك .. ربما أنا التى بحاجة إلى قدر من الثقة بنفسى وبقراراتى .

بدا صوتها متهدجًا وملامحها مضطربة .. ورأى فى عينيها صورة قديمة مشابهة لتلك الفتاة الخائفة من شىء ما وتنشد فى وجوده الأمان الذى تحتاجه .

فتناول يدها الصغيرة بين يديه برفق وحنان وكأنه يحاول أن يبعث فيها

الدفء والطمأنينة وفى عينيه نظرة تبوح بعاطفته الفياضة تجاهها قائلاً :

ـ أنا لا أعرف ما الذى يثير مخاوفك إلى هذا الحد .. لكنى أعرف شيئا واحدًا وهو أن الحب الحقيقى لا يأتى فى حياة المرء مرتين وأنا لم أعرف هذا النوع من العاطفة التى أحسستها وما زلت أحسها تجاهك إلا معك وحدك .

لذا فبعد أن عدت لأجدك .. أجدنى غير مستعد لأن أخسرك ثانية .

قالت له بصوت متهدج :

ـ وأنا أيضًا لم أحب أحدًا سواك يا (حسام) .. وأعدك أننى سأتحدى أية عقبات يمكن أن تفرق بيننا ثانية .. فقط دعنا نتحلى بالصبر قليلاً .

هز رأسه قائلاً :

ـ يكفينى أن أسمع منك ذلك .

وأوصلها إلى فندقها ليودعها قائلاً :

ـ سنلتقى غدًا صباحًا .

ـ دعنا نتقابل فى المساء فلا أريد أن أعطلك عن عملك .

قال لها بإصرار :

ـ بل صباحًا .. كفانا ما أضعناه من العمر .. أنا مشتاق لقضاء أطول وقت معك غدًا .. سآخذ إجازة من عملى غدًا لنقضى طوال اليوم معًا .

أضاءت نور غرفتها وهى تبدو شبه حالمة .

لكن ما إن فعلت حتى تراجعت إلى الخلف فجأة وقد انبعثت منها شهقة قوية وارتسمت على وجهها مظاهر الفزع .

فقد رأت شخصًا جالسًا فى إحدى أركان الغرفة وهو يحدق فيها بعينين ثاقبتين واضعًا ساقًا على ساق .

وما إن تعرفت عليه حتى صاحت قائلة :

- أنت .

قال لها ببرود :

- آسف إذا كنت قد أفزعتك .

حاولت التغلب على اضطرابها وهى تسأله قائلة :

- كيف دخلت إلى غرفتى ؟

قال لها بنفس النبرة الباردة :

- لا تشغلى بالك بتلك الأمور التافهة .. أنت تعرفين أننى أستطيع الالتقاء بك وقتما أشاء وفى أى مكان .

قالت وهى تحاول أن تبدو رابطة الجأش أمامه :

- لكننا لم نتفق على ذلك .

- دعينا نتحدث فيما هو أهم .. لقد التقيت به .. أليس كذلك ؟

واجهته بتحدٍ قائلة :

ـ لن أجيبك على شىء قبل مغادرتك لغرفتى .

بقى يحدق فيها لبرهة قبل أن ينهض متثاقلاً ليقترب منها ليهمس فى أذنها بصوت كفحيح الثعبان قائلاً :

ـ سأنتظرك بصالة الكافيه فى الفندق .. إياك أن تتأخرى .. فأنت تعرفين أننى لا أحب الانتظار طويلاً .

★ ★ ★

الفصل الرابع

زفرت بشدة وهى ترفع بصرها إلى سقف الحجرة .. ثم جلست على حافة فراشها لتضع مرفقيها فوق ركبتيها وأسندت جبينها إلى أصابعها المتشابكة وقد بدت فى حالة من التوتر الشديد .

بقيت على هذا الوضع لعدة دقائق قبل أن تغادر حجرتها لتذهب إلى الثانيه .

حيث رأت الرجل جالسًا إلى إحدى الموائد يتناول شرابه .

جلست أمامه صامتة لبرهة وقد حدجها بنظراته الباردة قائلاً :

- لم تجيبى على سؤالى بعد .. هل قابلته ؟

قالت له بوجه متجهم الملامح :

- لا أظن أنك تحتاج منى إلى إجابة .. فلابد أن أعوانك أخبروك بذلك .

- ومع ذلك أريد أن أعرف ما إذا كنت قد استطعت أن تستمليه إليك كما اتفقنا ؟

قالت له ببرود :

- لقد طلب أن يتزوجنى .

تخلى عن مظهره الجاف مطلقًا ضحكة ساخرة وهو يقول :

- يتزوجك .. بهذه السرعة .. لم أكن أظن أن لك كل هذا التأثير الساحر على الشباب .

قالت له بجفاء :

ـ هذا ما حدث .

تراجع فى مقعده وهو يتأملها بعينين فاحصتين قائلاً :

ـ صحيح أنك فتاة جميلة .. وتجمع بينكما العديد من الذكريات العاطفية .. لكنى أعرف الشاب جيدًا .. ولا أظنه من هذا النوع سريع التأثر إلى الحد الذى يجعله ينساق إلى فتنتك بتلك السرعة فيطلب منك الزواج فى ثانى لقاء يجمع بينكما .

ـ حسنًا إذا لم تكن واثقًا من قدرتى على ذلك فلِمَ استخدمتنى إذن ؟! أنا أيضًا لم أكن أظن أن الأمور ستسير بمثل هذه السرعة ؟

ـ إذن فلديك عرض للزواج من حبيب الصبا .

ـ وقد رفضته .

نظر إليها مستنكرًا وهو يقول :

ـ لماذا ؟ هذا أفضل مما كنا نتوقع .

نظرت إليه بامتعاض قائلة :

ـ أتريدنى أن أتزوجه حقًا ؟

ـ ولِمَ لا ما دام ذلك سيسهل لنا ما أردناه .

قالت له بغضب :

ـ أليس لمشاعر البشر وأحاسيسهم اعتبار لديكم ؟

قال لها متهكمًا :

ـ كيف تقولين ذلك .. وقد اعتمدت على وجود تلك المشاعر التى رافقتكما تلك السنين الماضية .

وارتكز بمرفقيه على حافة المائدة وهو يميل نحوها مستطردًا بلهجته التهكمية :

ـ لا تنكرى أن الفتى وسيم .. وربما ازداد وسامة عما كان عليه من قبل وما دام روميو متلهفًا هكذا على الاقتران بجولييت التى أحبته فما معنى تدلل جولييت الآن ؟!

قالت له بتحد :

ـ لا شأن لك بما أريده .. إذًا لم أكن راغبة فى الاقتران به فلن تجبرنى أنت أو غيرك على فعل ذلك .

ـ أنتِ حرة .. لكن ما يعنينا هو ...

قاطعته بحدة قائلة :

ـ ما يعنيكم هو أن أنفذ لكم ما طلبتموه منى وقد وعدت بتنفيذه أما ما عدا ذلك فلا شأن لكم به .

ـ ومتى سيتم التنفيذ ؟

ـ عندما يحين الوقت المناسب .

ـ لا تنسى أنه ليس أمامنا الكثير من الوقت والمهلة الممنوحة لك قصيرة .

ـ ما زال أمامى عشرة أيام أخرى .

أشار لها بأصبعه قائلاً :

ـ على الأكثر .

ثم ضرب براحة يده الغليظة على المائدة قبل أن ينهض قائلاً :

ـ بعدها لا تلومى إلا نفسك .

وغادر المكان ليتركها وهى فى حالة من الوجوم .

ثم ما لثبت أن انحدرت العبارات من عينيها لتبلل وجنتيها فى صمت .

★ ★ ★

قال لها وهما يتجولان معًا فى الشانزلزيه :

ـ ما رأيك .. هل أعجبتك (باريس) ؟

قالت له مبتهجة :

ـ إنها أكثر من رائعة .

ورانت إليه بنظراتها مستطردة :

ـ أنا واثقة أننى لم أكن لأراها بهذه الروعة دون وجودك معى .

ابتسم وقد تشابكت أصابعهم قائلاً :

ـ هل تصدقينى لو قلت لك أننى أيضًا لم أرها بمثل هذا الجمال من قبل ؟ يبدو أن وجودك معى يضفى المزيد من الجمال على الأشياء التى اعتادت عينى أن تراها .

تبدلت ابتسامتها فجأة ليعتريها شىء من الحزن والشرود فاستوقفها قائلاً :

ـ ماذا بك ؟ هل قلت شيئًا ضايقك ؟

غمغمت قائلة :

ـ بغداد كانت تحوى أيضًا العديد من الأماكن الجميلة ، قال لها آسفًا :

ـ بغداد .. أجل مع الأسف خربها الأمريكان بعد غزوهم لها .

ـ هل ذهبت إلى هناك من قبل ؟

صمت برهة قبل أن يجيبها قائلاً :

ـ كلا .. لم يسعدنى الحظ بذلك .

ـ ألم تفكر فى السفر إلى العراق يومًا ما ؟

ـ فكرت فى ذلك بعد رحيلك مباشرة .. ظننت أننى سأعثر عليك هناك .. لكنى لم أعرف لك مكانًا محددًا .. ولكن لِمَ سألتنى هذا السؤال ؟

ـ لو كنت رأيتها قبل الاحتلال الأمريكى لأدركت حجم الكارثة التى حلت بها الآن .

غمغم قائلاً :

ـ إنه مصابنا جميعًا .. وفجيعة كل عربى فى أى مكان بالعالم .

قالت له متهكمة :

ـ هل تصدق ذلك ؟ من أين لك بتلك النظرة الرومانسية لمشاعر العرب تجاه بلادى ؟

ـ أتحدث عن الشرفاء منهم وأولئك الذين تجرى فى دمائهم مشاعر الإنسانية والعروبة والمصير المشترك أينما كانوا .

ـ كم عددهم فى ظنك ؟

ـ كثيرون يا (دعاء) .

غمغمت قائلة باستخفاف :

ـ أشك فى ذلك .

ـ لقد قابلت الكثير هنا من جنسيات عربية وإسلامية .. بل ومن دول مختلفة ممن لم يفقدوا ضميرهم الإنسانى بعد .. وكلهم يرفضون ما حدث ومتألمين لما حل بالعراق ومتضامنين مع الشعب العراقى .

حدجته بنظرة ثاقبة قائلة :

ـ أهذا هو شعورك حقًا ؟

نظر إليها باستنكار قائلاً :

ـ أترتابين فى ذلك ؟

قالت له بنبرة ساخطة :

ـ أصبحت أرتاب فى كل شىء .. اعذرنى يا (حسام) فقد دمر هذا الغزو كل ما هو جميل فى وطنى وفى نفوس أبنائه .

ربت على ظهرها قائلاً بإشفاق وتعاطف :

ـ ثقى أن هذا لن يستمر طويلاً .. فالمقاومة الوطنية تتصدى للمحتلين بجسارة ويكبدونهم خسائر فادحة .. وسيجبرونهم يومًا ما على مغادرة (العراق) وهم يجرون أذيال الخيبة ليعود (العراق) إلى ما كان عليه من قوة وبهاء وجمال .

ـ أراك مفرطًا فى تفاؤلك .

ليس مجرد تفاؤل .. بل ثقة .. أنت تعرفين أننى ولدت من أب مصرى وأم لبنانية .. وها أنا أعيش الآن فى (فرنسا) لكن وجودى هنا لم يؤثر فى انتمائى القومى والعروبى وأنا واثق أن العراق سينتصر فى النهاية ويستعيد مجده السابق .

قالت باستخفاف :

ـ شعارات .. كلها مجرد شعارات سخيفة وبالية لا معنى لها .

ـ لا يا (دعاء) .. أنت مخطئة .. ربما كانت مجرد شعارات وعبارات إنشائية بالنسبة لبعض الحكام والأنظمة السياسية لكنها ليست كذلك بالنسبة

للشعوب التى تشعر بالانتماء ووحدة المصير والهدف والتى توارثتها الأجيال جيلاً بعد آخر .

انفعلت قائلة :

- وما الذى قدمه العرب حكامًا وشعوبًا فى مواجهة العدوان الأمريكى على العراق ؟ بعضهم تآمر .. وبعضهم شمت فيما حدث أو اتخذ موقفًا سلبيًا .. وهناك من اكتفى بالتمنيات القلبية مثلما نفعل الآن .

حتى أبناء (العراق) انقسموا على أنفسهم وشارك بعضهم فى المؤامرة بينما انخرط الباقون فى تنظيمات طائفية ومذهبية وقبائلية وأخذوا يتصارعون مع بعضهم البعض مشاركين المحتلين فى تدمير الوطن وتقسيمه وتفتيت بنيانه .

- أعرف أن المؤامرة أحاطت بأبناء (العراق) وأضرمت بينهم نيران الفتنة .. لكن لا تنكرى أن هناك مقاومين شرفاء من أبناء الشعب العراقى أيضًا لم يستسلموا وما زالوا يناضلون ضد الغزاة ويكبدونهم خسائر فادحة ، دون أن تلين عزيمتهم أو يتراجع صمودهم .. أولئك هم الذين ينعقد عليهم الأمل .. ليس أمل (العراق) فقط .. بل الشعب العربى كله .

حدجته بنظرة غريبة قائلة :

- تتحدث وكأنك عليم ببواطن الأمور .

- أنا عليم بإرادة الشعوب ولدى ثقة فى أن (العراق) سيتحرر قريبًا وسيعود أفضل مما كان عليه .

وغمغمت قائلة :

- مع الأسف ليس لدى قدر كبير من تلك الثقة التى تتحدث عنها فها نحن نتجول فى أوروبا ونتكلم محاولين ابتكار نظريات نفلسف بها تخاذلنا بينما رائحة الدم والموت تفوح فى كل شبر من أرض (العراق) .

وأنا لا أعفى نفسى من المسئولية .. فما الذى أفعله هنا ؟

أمارس حياتى بصورة طبيعية وآمنة فى أسكتلندا .. وها أنا قد جئت فى رحلة سياحية إلى (فرنسا) .. ولا أفعل شيئًا سوى الكلام والشعور بالذنب تجاه وطن يحترق .

- وما الذى بإمكانك أن تفعليه فى ظل وضع خارج عن إرادتك ؟ الحياة لا بد وأن تستمر .

- معك حق الحياة لابد أن تستمر .. ولكن حتى لو فكرت بطريقة شخصية فكيف أنسى أن لى أخًا يعيش فى بغداد وأنه معرض للموت والخطر فى كل لحظة .

- ألم تحاولى أن توجهى له دعوة للسفر إليك .

- بل ألححت عليه فى ذلك .. لكنه رفض.. وأصر على البقاء محاولاً طمأنتى بأنه بعيد عن المخاطر ويمارس تجارته بصورة طبيعية دون اختلاف عما كان عليه الأمر قبل الاحتلال .

- هل يعمل (علاء) بالتجارة ؟

- أجل .. وكان قد بدأ يحقق نجاحًا كبيرًا فى عمله قبل العدوان لكنى لا أظن أن الأمور ما زالت على ما هى عليه بالنسبة له كما يقول .. فـ (علاء) لا يجب أن يحمل أحدًا شيئًا من همومه ومتاعبه.

وهو يعرف مدى حبى وارتباطى به لذا فأنا واثقة أنه يخفى عنى الحقيقة .

قال محاولاً طمأنتها :

- وربما كان صادقًا فيما قاله .. ما رأيك لو خضنا فى حديث آخر غير ذلك ؟

حاولت أن ترسم ابتسامة باهتة على شفتيها قائلة :

معك حق .. لقد شغلت تفكيرك بأشياء مزعجة .

- أنا فقط أحاول أن أجنبك تلك الحالة الانفعالية التى تبدين عليها .

حاولت أن تبدى شيئًا من الدعابة فى نبرتها وهى تقول له :

- كن حذرًا وفكر جيدًا فيما أنت مقدم عليه فالفتاة الصغيرة التى عرفتها من قبل صارت أكثر إزعاجًا مما كانت عليه .

مازحها بدوره قائلاً :

- أنا مستعد للمخاطرة إكرامًا لخاطر الفتاة الصغيرة التى أحببتها .

ضحكت قائلة :

- أنت حر فى النهاية لا تلم إلا نفسك .

- ومن قال لك إننى لا أشبهك فى الإزعاج وإثارة المتاعب ؟

- هذا شىء أعرفه ولست بحاجة لأن يخبرنى به أحد هل نسيت يوم أخذتنى ونحن صغار إلى صالة التزلج وصممت على أن نتزحلق معًا ؟

قال لها ضاحكًا :

- يومها كنت خائفة للغاية وسقطت على الأرض عدة مرات .

- تسببت لى فى حرج شديد بالإضافة للإصابة التى تعرضت لها فى ركبتى وألزمتنى الفراش لعدة أيام .

- لكنك بعنادك المعتاد رفضتى أن تستسلمى وذهبتى للتدريب على التزلج من وراء ظهرى حتى أجدته وصرت أكثر منى براعة .

- وفاجأتك أنت والآخرين بذلك على نحو أثار دهشتكم ورد لى اعتبارى أمام الجميع .. بل إنى تفوقت عليك بعدها فى التزلج حتى أنك لم تستطع مجاراتى مما أثار غيظك منى .

ابتسم قائلاً :

- لكن لا تنكرى أننى كنت صاحب الفضل فيما وصلت إليه من مستوى .. فلولا إصرارى على أن تشاركينى التزلج يومها وما تعرضت له من إصابة وحرج لما أصبحت بتلك المهارة .

- بل لأننى كنت وما زلت أمتلك روح التحدى .

صمت فجأة والتمعت عيناه ببريق غريب .. قبل أن يقول :

- حسنًا أيتها العنيدة لقد أوحيت لى الآن بفكرة ما عن المكان الذى سأصحبك إليه .

ـ لا تقل إنك تقصد صالة تزلج .

ـ هذا بالضبط ما فكرت فيه .. وبالمناسبة هى قريبة من هنا .

★★★

الفصل الخامس

ضحكت قائلة :

ـ لا تكن أحمق فقد كبرنا على تلك الألعاب .

قال لها مصممًا :

ـ من قال ذلك ؟ نحن ما زلنا فى مقتبل العمر .. ثم هل نسيت أين نحن الآن .. إننا فى (باريس) .. حيث الكل منطلق بلا قيود ويفعل ما يريد .

ستفاجئين بأعمار أولئك الذين يمارسون تلك الرياضة فى حالة التزلج .. بعضهم تخطى السبعين من عمره ويمارسونها كما لو كانوا أطفالاً صغارًا .

قالت وهى ما زالت تضحك :

ـ لكنى لم أعد بنفس المهارة التى كنت عليها .

ـ أراهن أنك لم تفقدى شيئًا من مهارتك .. ثم أين هو عنادك المعتاد ؟

وانخرط الاثنان فى الاستمتاع بالتزلج فى الصالة المغطاة على الجليد الصناعى وسط مجموعة من ممارسى تلك الرياضة الجامعة بين الرقص والاستعراض ..

وقد أحس كلاهما وهما ينسابان بخفة ورشاقة بأحذية التزلج فوق الأرض الجليدية بمتعة كبيرة .. وبدا وكأنهما يستعيدان ذكريات أيام جميلة سابقة .

كانا بحاجة لهذه الساعات المرحة التى قضياها فى صالة التزلج لينفضا عنهما أثقالاً من الأحزان والهموم .. وأسرار خشى كل منهما أن يبوح بها للآخر .

ولكن ما إن غادرا المكان .. وأسدل الليل خيوطه عليهما حتى بدا منزعجًا ومهمومًا وهو يحدثها قائلاً :

ـ لا أدرى ما الذى سأفعله بحياتى دونك بعد أن تسافرى وتتركينى هنا بمفردى ؟

حاولت أن تخفف عنه وعن نفسها بابتسامة مصطنعة قائلة :

ـ حاول أن تأتى لزيارتى حينما تسمح ظروفك بذلك .

نظر إليها مليًا وهو يقول :

ـ لم يعد من السهل علينا الآن أن نترك علاقتنا رهنًا للظروف .. سيكون ذلك قاسيًا للغاية بالنسبة لى أن نبتعد ثانية ونلتقى كلما سمحت ظروفنا وأمكانياتنا بذلك .

تنهدت بعمق قائلة :

- ولن يكون سهلاً بالنسبة لى أيضًا .. لكن ماذا نفعل ؟ فواقعنا يتحكم بنا .. سيكون بيننا بالطبع رسائل واتصالات هاتفية .. و ....

قاطعها بضيق قائلاً :

ـ هذا لا يكفى بالنسبة لى .. (دعاء) أشعر أننى لا أستطيع مفارقتك بعد الآن .

ـ هل لديك حل آخر ؟

ـ لقد أخبرتك من قبل عن الحل .. لما لا نتزوج ونعيش معًا فى مكان واحد يجمع بيننا ؟

ـ وماذا عن عملى ووظيفتك ؟

يمكنك أن تنتقلى للعمل فى إحدى الجامعات الفرنسية أو أسافر أنا للعمل بإحدى الشركات التجارية الأسكتلندية .. فأنا لدى خبرة .. و....

قاطعته بدورها قائلة :

ـ الأمر ليس بتلك البساطة التى تتحدث بها .. أوروبا بها نسبة بطالة عالية الآن والفرنسيون والأسكتلنديون لم يعودوا يحصلون على الوظائف بسهولة .. فما بالك بنا نحن .. وهم يعدوننا من الأجانب .

قال لها متبرمًا :

ـ أشعر أنك تعقدين الأمور وتصعبينها علينا .. المهم هو الحب الذى يجمع بيننا .. وما عدا ذلك يمكن تذليله .

عاتبته قائلة :

ـ لِمَ تحاول أن تقلل من قدر عاطفتى نحوك ؟ أنا أيضًا صرت أحلم باليوم

الذى يضمنا سويًا مكان واحد .. وحلمى هذا ليس وليد اليوم .. بل عاش فى وجدانى سنوات طويلة ..

فقط دعنا لا نتسرع لأن هناك مسافة كبيرة تفصل بين الواقع وما نتمناه .

الأحلام سهلة المنال .. أما الواقع فهو شديد التعقيد بالفعل .. من فضلك يا (حسام) دعنا نرتب لمستقبلنا جيدًا حتى لا يفرق أى شىء بيننا فيما بعد .

★ ★ ★

لم يفرق سفرها وعودتها إلى أسكتلندا بينهما تمامًا فبالرغم من الاتصالات والرسائل اليومية ظلا طوال الأسبوعين يتقابلان من آن لآخر .

استطاع أن يسافر إليها فى (أسكتلندا) .. كما عادت هى أيضًا إلى (باريس) فى عطلة نهاية الأسبوع الثانى لتلتقى به .

وفى كل مرة يلتقيان فيها كانا يشعران أكثر من ذى قبل أن كلا منهما لم يعد يستطيع الاستغناء عن الآخر ومن صدق عاطفته تجاهه .. أو هذا ما كانت تبدو عليه علاقتهما .

ملايين من البشر بدلت السنين الكثير من مشاعرهم وأحاسيسهم وتبدلت أفكارهم مع تقلبات الزمن .. لكن مشاعرهما بقيت على ما هى عليه ولم يؤثر عليها الماضى ولا الحاضر .

توهجت أحيانًا وخمدت أحيانًا لكنها لم تفارقهما أبدًا .

ربما فى انتظار تلك اللحظة القدرية التى تجمع بينهما من جديد هكذا كان (حسام) يفكر وهو جالس فى الطائرة التى أقلته إلى (أسكتلندا) ليلتقى بها .

وقد فوجئت برؤيته وهى تستعد لركوب سيارتها فعادت لتغلق بابها محدقة فيه بدهشة .

هرول إليها متلهفًا ليحتضنها قائلاً :

- وحشتينى .

تطلعت إليه قائلة :

- متى جئت ؟

تناول يدها بين أصابعه وعينيه تنطقان بلهفته واشتياقه قائلاً :

- منذ بضعة ساعات أتيت من المطار إلى هنا مباشرة حتى لا تفلت منى لحظة واحدة لنكون فيها معًا .

امتزجت دهشتها بابتسامة وهى تقول له :

- يا لها من مفاجأة .. لكنك لم تقل شيئًا عن مجيئك إلى (أسكتلندا) اليوم رغم اتصالنا بالأمس .

ـ لم أدبر لذلك . . وجدت نفسى أخضع لرغبة جامحة حرمتنى من النوم بالأمس ودفعتنى لأن آتى وأراك . . وهكذا ركبت أول طائرة حملتنى لأحضر إلى هنا .

ضحكت قائلة :

ـ يا لك من مجنون .

هز رأسه موافقًا وهو يقول :

ـ صدقت الحب يمكن أن يكون جنونيًا أحيانًا . . فلم أتخيل نفسى يومًا أتصرف بتلك الطريقة التلقائية والطفولية التى أبدو عليها الآن .

ابتسمت قائلة :

ـ لكنى أريد حبيبًا متزنًا وعاقلاً . . ثم إن تلك السفريات المتعددة تكلفك الكثير وتستنزف من دخلك بلا شك .

ـ كل شىء يهون من أجل عينيك . . (دعاء) لم أعد أقوى على بعادك أكثر من ذلك .

تبدلت ملامحها فجأة وتلاشت ابتسامتها تدريجيًا وهى تقول :

ـ (حسام) يكفى ذلك . . أرجوك كفى .

نظر إليها بدهشة قائلاً :

ـ هل قلت ما يغضبك ؟

أشاحت بوجهها وهى تقول :

ـ أنت تضغط على مشاعرى بأكثر مما أحتمل .

قال وهو يتأملها بحيرة :

ـ كنت أظن أن مشاعرنا متماثلة .. هل أزعجك مجيئى المفاجئ إلى هذا الحد ؟

ترقرقت عبرات فى عينيها حاولت أن تحجبها عنه وقد لاذت بالصمت بينما ظل يراقبها بنظراته الحائرة قبل أن يقول :

ـ يبدو أننى أثقل عليك بالفعل .. أنا لا أحب أن أفرض عليك أحاسيسى تجاهك .. لكنك أوحيت إلى بأنك ....

استدارت لتواجهه قائلة :

ـ أننى أحبك .. أليس كذلك ؟

ـ أليس هذا صحيحًا ؟

ـ ما الذى تراه ؟

ـ فى الحقيقة لم أعد أدرى .. فأنت تشعرينني بأنك تحملين مشاعر متقلبة .. أحيانًا أشعر بحبك لى .. وأحيانًا أخرى لا يمكننى أن أفهمك على الإطلاق .

قالت له بعصبية وهى تحاول مقاومة عبراتها :

ـ أنت لا تفهم شىء بالفعل .

أمسك بكفيها ليقربها إليه قائلاً بأنفعال :

ـ وضحى لى أنت أذن .. أخبرينى ما هو الحقيقى وما هو الوهمى فى علاقتنا ؟

تطلعت إليه بعينان دامعتان قائلة :

ـ قل لى أنت أى حقيقة أخفيتها عنى ؟ وما هو الشىء الذى لم تصارحنى به بعد ؟

نظر إليها بدهشة قائلاً :

ـ أنا لم أخفى عنك أى شىء يتعلق بى منذ أن تجدد لقائنا .

حدجته بنظرة ثاقبة قائلة :

ـ أواثق أنت من ذلك ؟

ـ أنت تعرفيننى منذ الصغر .. لم أكذب عليك أبدًا .. وكنت بالنسبة لك دائمًا كتابًا مفتوحًا .

ـ دعك من الصغر .. فوقتها كنا مجرد أطفال أبرياء لم يفعل بنا الزمن أفاعليه بعد .. أنا أتحدث عما تلى ذلك من سنين .. تلك السنين التى باعدت بيننا وأضافت إلى عمرنا .

ـ حدثتك عنها بما يكفى فى لقائتنا السابقة .. ولم أخف عنك أيضًا شيئًا فى حياتى مما يستحق أن تعرفيه .

قالت له بنبرة متهكمة :

ـ كل شىء .

قال لها وقد ضاقت حدقتاه :

ـ ما الذى تقصدينه ؟ وما معنى تلك النبرة التى تكلميننى بها ؟

ـ تنهدت بعمق دون أن تعقب بشىء .

بينما انفجر فى وجهها قائلاً بغضب :

ـ من الواضح أننى أخطأت بمجيئى إلى هنا .. بل يبدو أننى أخطأت فى تقدير كل شىء ومنذ البداية .

واستدار ليتركها مبتعدًا .

لكنها لحقت به لتتشبث بذراعه قائلة باستعطاف :

ـ (حسام) أرجوك لا تغضب منى .. أنا .. أنا لا أدرى ما الذى أصابنى ؟ ولِمَ أتصرف على هذا النحو ؟

قال لها منفعلاً :

ـ أنا أيضًا أريد أن أعرف السبب .. ولِمَ أصبحت أشعر أنك لا تحبيننى بقدر ما أحبك ؟!

أحيانًا أرى تلك العاطفة المتقدة فى عينيك وأحيانًا أخرى لا أرى إلا البرودة والجفاء ؟

وما معنى تلك النظرات المرتابة التى ترمقيننى بها فى بعض الأوقات ؟ لا بد أن يكون لديك تفسير لذلك .

قالت له بصوت متهدج :

ـ أريدك أن تعرف شيئًا واحدًا فقط وهو أننى لم أحب أحدًا طوال حياتى سواك .

تمعن فى وجهها قائلاً :

ـ أتمنى أن أصدقك .. لكن تصرفاتك معى توحى بغير ذلك .

قالت وهى تطلق زفرة طويلة من صدرها :

ـ لا ألومك .. فمع الأسف حبنا محاط بالكثير من التعقيدات .

ـ أية تعقيدات ؟ هل يمكنك أن تفسرى لى ؟

أشاحت بوجهها قائلة :

ـ مع الأسف لا يمكننى أن أقول لك أكثر من ذلك .

ـ قال لها مستاءً مجرد عبارات غامضة تحتمل الكثير من التأويلات .

قالت له واجمة :

ـ ستفهم كل شىء فى حينه .

ـ إذن من الأفضل ألا نلتقى ثانية قبل أن يكون لديك إجابة مقنعة على كل تساؤلاتى .

★ ★ ★

الفصل السادس

عاد إلى (باريس) مثقل الأحاسيس .. مضطرب المشاعر .

كان ناقمًا عليها وعلى قلبه الذى أحبها .. وأصبح غير راضٍ عن نفسه وانجرافه وراء تلك العاطفة التى أربكت حياته وأفكاره فقد كان لديه ما يكفيه من المشاكل والمتاعب .. ولم يكن بحاجة لأن يشغل عقله وقلبه بالمزيد منها والانخراط فى علاقة عاطفية مع فتاة متقلبة الأحاسيس .. تصرفاتها غامضة ويصعب عليه تفسير عاطفتها تجاهه .

فهذا الحب الذى أيقظ فى نفسه مشاعر رائعة وأعاد الحياة لقلبه من جديد انقلب فجأة ليصبح مصدرًا للحيرة والمعاناة .

ألحت عليه كل تلك الخواطر والأفكار التى شغلت عقله وتفكيره وهو يسير عائدًا إلى منزله بعد أن ترك سيارته للإصلاح فى أحدى مراكز الصيانة .

وقد بدا شاردًا وهو يستعيد حواره الأخير معها وتساءل عما عنته بسؤالها له حول ما إذا كان هناك ما يخفيه عنها ؟ قائلاً لنفسه ..

- ترى ما الذى كانت تقصده بذلك ؟

- وما هى تلك التعقيدات التى قالت إنها تحيط بحبنا ؟

هل هى مجرد كلمات اختلقتها لتتنصل من مسئولية ما تواعدا عليه ؟

وهل هى تحبه حقًا كما تدعى ؟ أم أنها تخدعه ببضعة كلمات معسولة ؟

وإذا كان هذا صحيحًا فهل خدعه إحساسه بأنها تبادله مشاعره بالفعل ؟

أم أنه مجرد خيال صورته له عاطفته المندفعة نحوها وصدقه قلبه ؟

ربما طرأ شيء ما على علاقتهما فى الآونة الأخيرة جعلها غير راغبة فى استمرار تلك العلاقة .

لكن متى حدث ذلك وعلاقتهما لم تكد تبدأ حتى يطرأ عليها ما يبدلها على هذا النحو ؟

شخص آخر ظهر فى حياتها فى الآونة الأخيرة .. ربما .. وإلا فما الذى يفسر ترددها وبرود عاطفتها المفاجئ تجاهه ؟!

ولم تمنعه حيرته وتساؤلاته وشرود أفكاره من الانتباه لوقع أقدام تلاحقه منذ بداية سيره .

فتوقف عن متابعة السير متظاهرًا باستخدام هاتفه المحمول وهو يصغى السمع .

www.riwaya.ga

كان الوقت ليلاً والشارع يبدو خاليًا ومظلمًا بعض الشىء مما مكنه من سماع توقف الخطوات جيدًا .. ليتأكد له أن هناك من يتعقبه بالفعل .

وسرعان ما انعطف عند أول شارع جانبى صادفه ليختفى وراء إحدى الأشجار القريبة من المنزل المجاور للرصيف .

حيث رأى ذلك الشخص الذى يخفى الظلام ملامحه وهو يسرع الخطى محاولاً اللحاق به .

وما إن اقترب حتى انقض عليه فجأة ليمسك بسترته وقد ضم قبضته بقوة تأهبًا لتسديد لكمة إلى فكه قائلاً له :

ـ من أنت ؟ ولِمَ تتعقبنى ؟

حاول الرجل التملص من قبضته لكنـه تشبث به بشدة ليمنعه من ذلك .

وفجأة توقفت سيارة حمراء صغيرة بجوارهما ليطل من نافذتها وجه لامرأة تبدو وقد تجاوزت العقد الثالث من العمر ذات ملامح لا تخلو من الجمال رغم ما يبدو عليها من جدية وصرامة .. قائلة بصوت آمر :

ـ دعه يذهب .

التفت إليها وقد علت وجهه ملامح الدهشة بينما عادت المرأة لتقول بحزم :

- قلت لك دعه .

ظل مترددًا للحظة قبل أن يفلت الرجل الذى سارع بالهرب .

وسرعان ما اقترب من السيارة ليحدق بها قائلاً بعصبية شديدة :

- ما الذى تريدونه ؟

أشارت إلى المقعد بجوارها قائلة :

- اركب .

بقى مترددًا للحظة قبل أن يجلس بجوارها وهو لا زال منفعلاً ليقول :

- قلت لكم من قبل إننى لا أحب أن أكون مراقبًا فى تحركاتى .

قالت له ببرود وهى تدير محرك السيارة :

- إننا نفعل ذلك من أجل حمايتك .

- وأنا لم أعد بحاجة لتلك الحماية .. هذا ما اتفقت عليه مع (نيكولاى) فى آخر لقاء بيننا .

قادت سيارتها قائلة :

ـ ولماذا لجأت إلينا من البداية ؟

ـ لأننى لم أجد وقتها حلاً آخر سوى ذلك .. كان الخطر يتهددنى وكنتم بحاجة إلى .. أى أنه كانت بيننا مصالح مشتركة وقتها .. لكن هذا الخطر تباعد الآن ونال كلانا ما يريده من الآخر .

هذا ما أخبرتكم به الشهر الماضى واتفقنا بعدها على أن تتركونى أتحرك بحرية أكثر وأتصرف مع الأمور على طريقتى .

التفتت إليه قائلة :

ـ أواثق أنت حقًا أنك لم تعد مهددًا ؟

ـ هم يعرفون الآن جيدًا أنهم لن يستطيعوا إلحاق أى أذى بى دون أن ينالوا نصيبًا من ذلك .

ـ وأنت تعرف أنهم لن يتركوك لحالك طالما تشكل خطرًا على مصالحهم .

ـ لكن (نيكولاى) أخبرنى فى المرة السابقة أنهم لن يقدموا على ارتكاب أى حماقات طالما .....

قاطعته قائلة :

ـ هذا لا يعنى أنهم أغلقوا ملفك لديهم بصورة نهائية .

قال لها بضيق :

- أيًا كان الأمر فأنا أريد أن يتوقف الأمر عند هذا الحد .

أوقفت سيارتها لتجابهه بنظرة حادة قائلة :

- هذا لا يتوقف على إرادتك وحدك .

قال لها متحفزًا :

- ماذا تقصدين ؟

غادرت سيارتها لتسير على الرصيف المجاور لإحدى الحدائق .

وقد لحق بها ليعاود سؤالها قائلاً :

- لم تجيبى على سؤالى .

قالت ببرود :

- لقد اتفقنا من البداية أنه تجمعنا مصالح مشتركة .. ونحن من جانبنا لم نتخل عن التزامنا فى هذا الشأن .

أنت أيضًا لا يمكنك أن تضحى بمصالحنا لمجرد أن رغبتك قد تبدلت .

- هل يعنى هذا أننى صرت أسيرًا لكم .. هل أكون قد أفلت من أذاهم لأقع بين أيديكم ؟

حاولت أن تبدو أكثر لطفًا وهى تلتفت إليه قائلة :

- نحن لم نلحق بك أى ضرر .. بالعكس منعنا عنك الكثير من الأذى الذى تعرضت له .

ليس هذا فقط بل وفرنا لك كل ما كنت تحتاجه للإقامة هنا والحصول على وظيفة لائقة فى (باريس) .. وأنت تعلم بالطبع أن هذا ليس بالأمر الهين ولم يكن بإمكانك الحصول عليه لولا مساعدتنا .

وكنا نظن أننا سنلقى منك فى النهاية التقدير الذى نستحقه بدلاً من تعاملك معنا على هذا النحو .

قال لها بتوتر :

ـ لو لم تكونوا واثقين أن ما حصلتم عليه منى ذا أهمية كبيرة بالنسبة لكم ما كنتم تعاملتم معى بهذا الكرم .

فى الآونة الأخيرة شعرت أننى فقدت أهميتى لديكم فما الذى طرأ مؤخرًا ليعود هذا الاهتمام فجأة إلى حد إرسال من يتتبع خطواتى وتحركاتى ؟

جلست على أول مقعد خشبى قابلها وهى تتطلع إليه قائلة :

ـ السبب أنهم هم أيضًا عادوا للاهتمام بك من جديد وتبين من خلال المعلومات التى توافرت لنا أنهم يسعون لاستدارجك بطريقة ما .

قال لها مستفسرًا :

استدراجى ؟!

ـ أجل .. لقد أدركوا أن وسائلهم الخشنة لم تعد تصلح بالنسبة لك ما دمنا نقف خلفك ونؤمن ظهرك .. لذا قرروا اللجوء إلى وسائل أكثر نعومة .

ـ ماذا تعنين ؟

دعته للجلوس بجوارها وهى تقول :

ـ لقد تعرفت بصديقة قديمة وحميمة فى الآونة الأخيرة .. أليس كذلك ؟

قال لها وقد ضاقت حدقتاه :

ـ أية صديقة تلك التى تتحدثين عنها ؟

ـ اسمها (دعاء خطاب) وهى من أصل عراقى ووالدها كان يعمل دبلوماسى قبل وفاته .

نظر إليها بدهشة قائلاً :

ـ من أين لكم بهذه المعلومات ؟ وما علاقتها بهذا الأمر ؟

حدقت فى وجهه قائلة :

ـ ما لا تعرفه هو أن الفتاة عميلة للاستخبارات الأمريكية .

عقدت المفأجاة لسانه ووضحت آثارها على وجهه فظل يحدق فيها لبرهة قبل أن يقول منفعلاً :

ـ لا .. هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا .

تناولت ظرفًا كبيرًا من جيبها لتقدمه له قائلة :

ـ إذن اطلع على هذه الصور وقل لى رأيك ؟

فتح الظرف ليجد به عددًا من الصور التى تجمع بين الفتاة وأشخاص ذوى ملامح مختلفة .

بالإضافة لصورة لها وهى جالسة أمام مكتب يعلوه صورة الرئيس والعلم الأمريكى وقد جلس خلفه شخص يتحدث إليها .

قال لها غير مصدق :

ـ هذه الصور لا تعنى شيئًا .

ـ بل تعنى الكثير .. فهؤلاء الأشخاص الذين يظهرون برفقة الفتاة عملاء محترفون للمخابرات الأمريكية وعملاؤهم المحليين فى (العراق) .

وتناولت صورة أخرى من جيبها لتقدمها له قائلة :

ـ انظر إلى هذه الصورة جيدًا .. وتمعن فى الرجل الجالس برفقة صديقتك .. ألا يبدو هذا الوجه مألوفًا بالنسبة لك ؟

حدق فى الصورة وهو يغمغم قائلاً :

ـ أجل .. إنه ....

ـ ستيف ستيوارت .. إنه نفس الشخص الذى حاول من قبل أن يجندك لحساب المخابرات الأمريكية .

ظل يحدق فى وجه الرجل محاولاً أن يكذب عينيه .. بينما استطردت قائلة :

ـ ألا يكفى هذا لتعرف حقيقة الدور الذى تضطلع به هذه الفتاة لاستدراجك ؟

غمغم قائلاً وملامح الصدمة ترتسم على وجهه :

ـ (دعاء) .. غير معقول .. كيف ؟ ولِمَ هى بالذات ؟

ـ لأن لكما تاريخًا مشتركًا . وكانوا واثقين أنها ستنجح فى استمالتك .

هل عرفت الآن لِمَ عدنا للاهتمام بك ومراقبتك ؟ ما كان يتعين عليك أن تمنحها تلك الثقة أيًا كانت مشاعرك نحوها .

صمتت قليلاً قبل أن تستطرد قائلة :

على أية حال يبدو أننا أطلعناك على حقيقتها فى الوقت المناسب لتأخذ حذرك منها .

لكن عليك أن تعى الدرس جيدًا وتتعلم منذ الآن ألا تضع ثقتك فى أحد مهما كان .

واستطردت وهى تنهض قائلة :

ـ سأتركك الآن لتستعيد توازنك بعدما أخبرتك به .. لكن حذار أن تدع الفتاة تعرف ما عرفته عنها الآن .

ومالت عليه برأسها مردفة :

ـ من الأفضل أن تبقى على علاقتها بك كما هى .

ـ لماذا ؟

ـ هذا ما سأخبرك به عندما نلتقى غدًا هنا فى نفس المكان .

وربتت على كتفه وهى تكمل قائلة :

ـ كن مطمئنًا .. فنحن خلفك وسنقدم لك خدماتنا كلما احتجت إليها لأنك تهمنا كثيرًا .

غادرته عائدة إلى سيارتها بينما ظل جالسًا فى مكانه وهو يتطلع إلى الطريق بعينين ذاهلتين وعقله يستعيد كلماته معها .

الآن .. فقط فهم مغزى تلك العبارات الغامضة التى قالتها .. وسر ترددها بشأن زواجهما .. وكل تلك التصرفات المبهمة التى أثارت حيرته وتساؤلاته دون أن يجد لها تفسيرًا .

★ ★ ★

جلس يتناول الشاى فى الكافيتريا التى شهدت لقاءهما .

حينما سمع صوتًا يأتى من خلفه قائلاً :

- أيمكنك أن تدعونى لفنجان شاى معك ؟

التفت إليها مندهشًا فى البداية .. لكن سرعان ما تحولت دهشته إلى قناع من الجمود وهو يشير إلى المقعد المجاور قائلاً :

- بالطبع .

طالعته بابتسامة وهى تجلس فى مواجهته قائلة :

- كنت أعرف أننى سأجدك هنا .

قال لها بجفاء :

ـ أنت تعرفين دائمًا كيف تجدينني .

لامست أصابعها أصابعه قائلة بنعومة :

ـ أما زلت غاضبًا منى ؟

جذب يده برفق وهو يرمقها بنظرة باردة تخلو من أية مشاعر .

بينما استطردت قائلة :

ـ معك حق .. أنا أيضًا كنت ناقمة على نفسى .. ولمت نفسى كثيرًا لتلك الطريقة الجافة التى تعاملت بها معك فى آخر لقاء بيننا .. وها أنا قد جئت لمصالحتك .. وأرجو أن تقبل اعتذارى .

انتظر حتى انصرف النادل بعد أن أحضر فنجان الشاى ليحدجها بنظرة ثاقبة قائلاً :

ـ هل تذكرين ما قلته لك من قبل ؟

تطلعت إلى وجهه قائلة :

ـ أنا لا أنسى شيئًا قلته لى .

ـ لقد سألتك ما إذا كان الحب الذى عرفناه سويًا ما زال قائمًا ؟

ـ وأنا قلت لك إنه ما زال باقيًا على ما هو عليه .

- بل قلت أنه موجود لكنه محاط بالكثير من التعقيدات .

وأنا طلبت منك إجابة واضحة على سؤالى .

فهل أنت مستعدة لتعطينى تلك الإجابة الآن ؟

بدت حائرة وهى تنظر إليه بعينين زائغتين وقد اعتراها الصمت .. قبل أن تقول :

- ليتنى أستطيع أن أطلعك على كل شىء حاليًا .. لكن لا يمكننى ذلك .. وإن كنت أعدك بأننى سأجيب على كل تساؤلاتك ولكن فيما بعد .

★ ★ ★

الفصل السابع

كان يبحث فى ملامحها عن تلك الفتاة البريئة التى أحبها من قبل لكنها بدت غريبة عنها فى تلك اللحظة رغم أنها كانت نفس الملامح .

وتمنى لو كان بإمكانه أن يكرهها ويدفع قلبه للقسوة عليها .. لكنه وجد نفسه ما زال مغرمًا بها .. وقد أزعجه ذلك كثيرًا .

سألها قائلاً :

ـ ما الذى أتى بك إلى (باريس) ؟

ـ أردت أن أراك وأطلب منك أن تسامحنى .

ـ ثم .. ماذا ؟

ـ ثم إننى افتقدتك كثيرًا .

قال لها متهكمًا :

ـ حقًا .

أطرقت قائلة :

ـ يبدو أنك لم تسامحنى بعد ولم تقبل اعتذارى .

ـ أظن أن الأمر لا علاقة له بالاعتذار أو الترضية أو مسألة افتقادك لى .

- (حسام) أتتهمنى بالكذب .. إذن لا بد أن تعتذر لى أنت هذه المرة وإن كنت سأكون أكثر منك تسامحًا ولن أطالبك بذلك .

وابتسمت له مستطردة :

- على أية حال فبالإضافة لما قلته هناك مفاجأة أحملها لك .

نظر إليها صامتًا دون أن يعقب .

فعادت لتقول :

- ما رأيك لو سافرنا معًا إلى (الأردن) ؟

- وما الذى يدعونا للسفر إلى (الأردن) ؟

- سألقى بعض المحاضرات فى إحدى الجامعات الأردنية بتكليف من الجامعة الأسكتلندية التى أعمل بها وعلى نفقتها الخاصة .. والمفاجأة أننى لم أحصل على تذكرة واحدة فقط بل تذكرتى ذهاب وعودة على الخطوط البريطانية .

لذا فكرت أن تصاحبنى فى تلك الرحلة التى ستستمر لمدة أسبوع .. نقضيها ما بين العمل والسياحة .

سنقيم فى أرقى الفنادق الأردنية وبين ربوع جبال (عمان) مع الحصول على خدمة سياحية من الدرجة الأولى .

قابل حماسها ببرودة لم تتوقعها قائلاً :

ـ ومتى ستسافرين ؟

ـ بعد أربعة أيام .

ـ ربما لن تسنح ظروف عملى بالسفر معك ؟

تمعنت فى وجهه قائلة :

ـ كنت أظن أنك ستسر بذلك .. خاصة أن رحلة كهذه ستزيد من تقاربنا أكثر .. وربما انتهت بـ .....

وأحجمت عن الاستمرار فى الكلام وقد تورد وجهها خجلاً .

بينما بقى محتفظًا بجمود ملامحه وهو يسألها قائلاً :

ـ تنتهى بماذا ؟

قالت له بصوت خافت مضطرب النبرات :

ـ بزواجنا .. فأنا مستعدة لعقد قراننا فى (عمان) قبل نهاية الرحلة .

ظل صامتًا وهو يحدجها بنظرة مبهمة .. مما أثار حيرتها فأردفت قائلة :

ـ أليس هذا ما أردته ؟ أم أنك غيرت رأيك ؟

- إذن وافقت أخيرًا على زواجنا .

- أترانى أخطأت بذلك ؟

- دعينى أسألك سؤالاً واضحًا وأرجو أن تجيبينى عليه بصراحة .. هل أنت مقتنعة حقًا بزواجنا ؟

- بالطبع .. أنا الآن مقتنعة بذلك أكثر من أى وقت مضى وإلا ما وافقت .

- ولِمَ اخترتى (الأردن) بالذات ؟ لِمَ لا تتزوج فى (فرنسا) أو (أسكتلندا) مثلاً ؟

قالت له باستغراب :

- ماذا بك يا (حسام) ؟ لم أكن أتوقع منك رد الفعل هذا .

عاد ليلح عليها قائلاً :

- من فضلك أجيبى على سؤالى .

قالت له غاضبة :

- لأننى دبرت الأمر بحيث نلتقى بأخى (علاء) هناك ليكون وكيلاً لى فى عقد قرانى .. ولأنه بلد عربى وإسلامى وظننت أنه من الأفضل أن يعقد قراننا فيه .

فالظروف فى وطنى كما تعرف لا تسمح لنا بالسفر والزواج هناك حاليًا .

هز رأسه قائلاً باستخفاف :

- يبدو أنك دبرتى لكل شىء بالفعل .

هبت واقفة فجأة لتقول له بانفعال :

- آسفة من الواضح أننى تسرعت .. انس كل ما قلته لك الآن .. بل انس حتى أننا تقابلنا اليوم .

وآسفة أيضًا لأننى صدقت ما عبرت لى عنه من مشاعر تجاهى .

وهمت بالانصراف .. لكنه أمسك بمعصمها ليستوقفها قائلاً :

- اجلسى من فضلك .

- لماذا ؟ لتستمتع برؤيتى وأنا أتوسل إليك أن تقبل اعتذارى عما قلته من قبل أم لرغبتك فى أن ترانى أتذلل إليك كى تقبل الزواج منى ؟

أم هى رغبة منك فى إرضاء كبريائك الذى جرح عندما طالبتك من قبل أن نتريث قبل أن نقدم على الزواج ؟

وانتزعت معصمها من قبضته لتغادر المكان بخطوات غاضبة مسرعة .

وقد وجد نفسه يندفع خلفها وهو يناديها قائلاً :

- (دعاء) .. من فضلك انتظرى .. لا بد أن نكمل حديثنا معًا .

تجاهلت نداءه وقد أخذت تعدو فى الشارع ركضًا .

وفجأة ظهرت أمامها سيارة مسرعة لتنطلق فى اتجاهها كما لو أنها ستعمد إلى الاصطدام بها .

ولمح (حسام) السيارة وهى تندفع نحوها مسرعة .. وقد تنبهت لها متأخرة فتجمدت فى مكانها وفى عينيها نظرة فزع .

بينما صرخ عليها مرتاعًا :

- (دعاء) .

وبدا وكأنه قد اكتسب فى هذه اللحظة قوة خارقة جعلته يقفز نحوها بسرعة البرق ليحتويها بين ذراعيه ملقيًا بها أرضًا وهو يتدحرج بها بعيدًا عن مقدمة السيارة التى واصلت انطلاقها دون توقف .

جزء من الثانية فقط كان هو الفاصل بينهما وبين موت محقق .

أحاط بهما جمع من الناس بينما جثا على ركبتيه محاولاً التأكد من سلامتها .

- (دعاء) .. هل أنت بخير ؟

نظرت إليه بعينين ذاهلتين من أثر الصدمة قائلة بصوت مرتعش :

- أجل .. وأنت هل أصابك شىء ؟

تنفس بارتياح وهو يساعدها على الوقوف قائلاً :

- الحمد لله .. الحمد لله كلانا بخير .

نظرت إلى شفتيه اللتين تنزفان دمًا قائلة بانزعاج :

ـ لكن .. هذه الدماء .

ـ مجرد جرح بسيط من أثر الوقوع على الأرض .

تناولت منديلا من حقيبتها لتمسح به شفتيه .. فتناول يدها ليقبلها وهو يلف ذراعه حول كتفيها قائلاً :

ـ الحمد لله أنك بخير يا حبيبتى .

أسندت رأسها إلى صدره قائلة باستكانة وعتاب :

ـ حبيبتى .. كنت أتمنى أن أسمع منك هذه الكلمة من أول لحظة جئت فيها إلى هنا .

هل كان يتعين عليك أن تنتظر حتى تصدمنى سيارة مسرعة لأسمعها منك ؟

صمت وهو يضمها إليه بينما صرخة قوية تتردد فى أعماقه « لو تعلمين كم أحبك » .

بينما رفعت رأسها إليه قائلة :

ـ أحقًا ما زلت تحبنى ؟

أفاضت عيناه بمشاعره الفياضة تجاهها وهو يقول لها بصوت دافئ :

ـ بكل جوارحى .

ـ وما زلت تريد الزواج منى ؟

ـ إنها أكبر أمانى .

عادت لتلقى برأسها على صدره .. لكن هذه المرة كانت تحاول أن تخفى عنه تلك العبرات التى انسابت فوق وجنتيها .

★ ★ ★

ضرب بيده فى عنف على المكتب الذى تجلس إليه نورما أو المرأة الفولاذية كما يسمونها .. تلك التى التقى بها من قبل قائلاً :

ـ لما فعلتم ذلك ؟

قالت له ببرود :

ـ وما الذى فعلناه ؟

قال لها منفعلاً :

ـ أنت تعرفين ما أقصده جيدًا .. لقد حاول أحد رجالك أن يصدم الفتاة بسيارته بالأمس .

تراجعت بظهرها إلى الخلف وهى ترمقه بتلك النظرة الباردة قائلة :

ـ أما زلت تحبها وبالرغم من كل ما أخبرتك به عنها ؟

ـ ليس للحب أو الكراهية علاقة بالأمر .. كان الاتفاق بيننا أن تدعونى أتصرف بمفردى .

قلت لك إنه باستطاعتى أن أسيطر عليها بل وأحولها إلى عميل مزدوج يعمل لصالحكم .

غادرت مكتبها لتدور من حوله وقد بدت نبرات صوتها صارمة وهى تقول :

ـ لقد ألغيت هذا الاتفاق مسيو (حسام) لأننى واثقة أنك ما زلت غارقًا فى حب هذه الفتاة وأضعف من أن تنفذ ما اتفقنا عليه .

فقد سمعنا حوارك معها ولم يكن لحديثكما هذا سوى معنى واحد وهو أنها ستتمكن هى فى النهاية من السيطرة عليك وليس العكس .

احتد قائلاً :

ـ ما زلتم إذن تلجئون لتلك الوسائل من أجل التجسس على تصرفاتى وعلى ما أقول وأفعل .

لقد قلت لك من قبل إننى أرفض هذه الطريقة ولا أحب أن أشعر بأن كلماتى وأنفاسى أصبحت محسوبة على .

ـ وأنا قلت لك إن هذا فى مصلحة الجميع .. ولولا ذلك لكان قد قضى

عليك منذ فترة .

- لقد سئمت من تكرار تلك العبارات الجاهزة دائمًا لتبرير حماقتكم وأخطائكم .

من فضلك دعينى أتصرف على طريقتى وبحرية أكثر إذا أردتم حقًا الاستفادة من خدماتى .

تحركت لتقف فى مواجهته قائلة :

- مسيو (حسام) .. من تظن أنك تخدع ؟ لا تنس أنك تتعامل مع محترفين يجيدون أداء عملهم .

نظر إليها بتحد قائلاً :

- حسنًا إذا لم تكونوا واثقين من أدائى لعملى فلنعتبر الأمر منتهيًا واعتبرونى منذ هذه اللحظة خارج اللعبة .

- حتى لو كان الثمن هو حياتك ؟ !

- أيًا كان الثمن .

- ألا ترى أن يعد ثمنًا باهظًا لعاطفة حمقاء .

- تلك العاطفة التى تتحدثين عنها لم تعد لها مكانًا فى حياتى .. فتلك الفتاة أرادت أن تخدعنى باسم الحب .. وأنا أستطيع أن أفعل الشىء

نفسه معها .. خاصة أنها جاءت لتخبرنى بموافقتها على زواجنا .. هذا يعنى أنه يمكن أن تصبح فى حوذتى بالكامل .

ضحكت (نورما) ضحكة عالية .. قائلة :

ـ لم أكن أظن أنك على هذا القدر من السذاجة .. ألا تفهم معنى مطالبتها لك بالسفر معها إلى (الأردن) لعقد زواجكما ؟

ـ أعرف أنها تريد استدراجى إلى هناك لتقدمنى على طبق من الذهب إلى الأمريكان وأعوانهم .

لكنها لا تعرف أننى أعرف ذلك .. وهذا يجعلنى متفوقًا عليها .

هل تعلمين أنت من هو شقيقها الذى تريد أن تقدمنى له ؟

إنه واحد من أبرز قادة المقاومة العراقية .. ولديه معلومات أكبر أهمية بكثير مما قدمته لكم من قبل .

ـ هل تقصد ؟...

ـ أقصد أننى لن أسافر معها إلى (الأردن) كما تريد .. بل سأسعى إلى إقناعها بأن تأتى بأخيها إلى (فرنسا) بعد مغادرته (للعراق) وسفره إلى (عمان) .

وعندما يأتى إلى هنا سيكون صيدًا سهلاً بالنسبة لكم .. خاصة وأننى أعرف أن لديكم وسائل شديدة الإقناع للاستفادة مما لديه من معلومات .

ـ ومن أين حصلت على تلك المعلومات عن أخيها ؟

بطريقتى الخاصة وبهذا أكون قد قلبت المائدة عليها وتنالوا أنتم ما

تبغونه .

بقيت صامتة لبرهة وهى تفكر .

بينما اقترب منها ليهمس فى أذنها قائلاً :

- دعينى فقط أتصرف دون قيود وبحرية أكثر حتى لا تثيروا الانتباه .. فلا تنس أنها هى الأخرى عميلة مدربة ومحترفة ولن يمضى وقت طويل حتى تنتبه إلى تلك الوسائل التى تتبعونها وتأخذ حذرها .

قالت له مترددة :

- لكن .....

قاطعها قائلاً :

- تأكدى أننى سألجأ إليكم إذا ما اقتضت الضرورة ذلك كما فعلت من قبل ولكن حتى تحين تلك اللحظة أريد قدرًا من حرية الحركة .

★ ★ ★

الفصل الثامن

شاركته إلقاء الحبوب لتلك الطيور السابحة فى البحيرة أمامهما وهى ترنو إليه بنظراتها من آن لآخر .

كان الطقس رائعًا .. والهدوء يخيم على المكان ليضفى عليه مزيدًا من الراحة والرومانسية .. وقد لفهما الصمت رغم ثورة مشاعرهما .

وما لبث أن قطع هذا الصمت بينهما قائلاً :

- لقد رتبت أمورى لنسافر معًا .

- إلى أين ؟

- (الأردن) .. كما قلت .

قالت له بصوت مضطرب :

- لن يكون هناك سفر .

- هل تأجل ؟

غمغمت وهى تهز رأسها قائلة :

- إلى أجل غير مسمى .

نظر إليها بدهشة قائلاً :

- لماذا ؟

بقيت صامتة دون أن تجيبه فاستطرد قائلاً وقد قطب جبينه :

ـ أهى إحدى تقلباتك المفاجئة ؟ لقد كنت تلحين علىَ لنسافر إلى (الأردن) ونلتقى بأخيك ونعقد قراننا هناك .

قالت دون أن تلتفت إليه :

ـ وتمنعت أنت فى البداية .. أليس كذلك ؟ بقدر ما أردت أن تأتى معى بقدر ما تمنيت لو رفضت ذلك وتمسكت برفضك .

قال لها باستغراب :

ـ أنا لم أعد أفهمك على الإطلاق .

أشاحت بنظراتها إلى البحيرة قائلة :

ـ أنا أيضًا لم أعد قادرة على فهم نفسى .

أمسك بذراعيها ليدير وجهها إليه قائلاً :

ـ قولى لى ما الذى تريدينه منى بالضبط ؟

تطلعت إليه بحيرة وتردد قبل أن تجيبه :

ـ أريد أن أبقى معك بقية عمرى .. وأن أكون زوجتك دون أن يفرق أى شىء بيننا أبدًا .

ـ إذن لِمَ تتراجعين فى كل مرة عما تقولينه ؟ ولِمَ أشعر بهذا التردد فى مشاعرك وقرارتك ؟

غمغمت قائلة :

ـ لأن هناك من يريدون حرمانى من كل ما تمنيته معك ، وإلحاق الأذى

بى وبك .

تمعن فى وجهها وقد ضاقت حدقتاه قائلاً :

ـ ماذا تقصدين ؟ من هم هؤلاء الذين تتحدثين عنهم ؟

أطلقت زفرة طويلة من صدرها وهى تطرق برأسها قائلة :

ـ سأعترف لك بكل شىء فلم أعد قادرة على إخفاء الحقيقة عنك أكثر من ذلك .. سأقول لك كل شىء مهما كانت العواقب .

رفع وجهها إليه قائلاً :

ـ وأنا أريد أن أسمعك .

ـ قبضوا على أخى (علاء) فى (العراق) بتهمة الانتماء إلى إحدى جماعات المقاومة هناك . رغم أن (علاء) كما تعرف كان شخصًا مسالمًا دائمًا ولا علاقة له بأى من تلك الجماعات الجهادية سواء المعتدلة أو المتطرفة .

لكنه عبر عن رفضه للعدوان الأمريكى على (العراق) بالمشاركة فى بعض المظاهرات المناهضة للغزو الأمريكى وعملائه المساندين له .. ليس أكثر من ذلك .

والحقيقة هى أنه لم يكن التظاهر أو المشاركة فى عمليات المقاومة هو السبب الحقيقى وراء اعتقاله .. بل أرادوا استخدامه وسيلة للضغط علىَ كى أتعاون مع إحدى الأجهزة الأمنية للحكومة القائمة فى (بغداد) الآن

والتى تتعاون بدورها مع المخابرات الأمريكية .

كان المطلوب منى هو استدراجك إلى (الأردن) أولاً ليقوم أعوانهم باختطافك ونقلك إلى (العراق) .

لا أدرى كيف علموا بالصلة التى بيننا رغم انقضاء سنوات طويلة على فراقنا .

ربما عثروا على بعض الصور التى تجمعنا ونحن صغار والتى كان يحتفظ بها (علاء) فى منزله . وربما بوسائل أخرى .

المهم أنه تبين لهم أننا متحابان .. وأن العاطفة التى ضمتنا لم تجد لها منافسًا فى قلب أحدنا طوال السنوات التالية التى فرقت بيننا .

وكانوا يعلمون كل شىء عنى وعنك .. الأماكن التى نقيم فيها ووظائفنا فى (أسكتلندا) و(فرنسا) .. وعلاقاتنا الشخصية .

وأرادوا استغلال كل ذلك لأنفذ لهم ما أرادوه .

كنت أمام اختبار شديد القسوة .. فقد ساومونى على حياة أخى الوحيد وحريته مقابل تنفيذ خطتهم بشأنك فلم أجد مفرًا من الخضوع لأوامرهم .

كان لقائى بك مدبرًا منذ البداية .

المائدة القريبة من مائدتك فى الكافيتريا والتى تعمدت الجلوس إليها . وتظاهرى بالجهل باللغة الفرنسية .. ثم التحدث إلى النادل باللغة العربية لأثير انتباهك ودفعك للتحدث معى .

وكنت مرغمة على التصرف على هذا النحو فى البداية .. لكن حينما

رأيتك أمامى واستعدت فى لحظة ذكريات سنين جميلة من عمرنا مضت تمنيت أن يفشل هذا التدبير وأن لا تتعرف على أو تتجاهلنى لأجد سببًا يعفينى من تلك المهمة الشاقة على نفسى .

لكنك تعرفت على .. وحاولت أن أتجاهل مشاعرى نحوك لأنجح فى تنفيذ ما طلبوه لكنى لم أستطع .

فالمشاعر القديمة تجددت . بل وازدادت عنفوانًا .

وسرعان ما تبين لى أن الماضى الذى ظننت أن الزمن قد طواه ما زال حيًا بداخلى ولم تتغلب عليه السنين رغم الفراق .

ووجدت نفسى أكاد أحترق بين نارين .. المشاركة فى عمل إجرامى ضحيته الشخص الوحيد الذى أحببته أو ترك أخى لمصير غامض ومرعب بين أيدى أشخاص لا يرحمون .

هذا هو السر الذى أخفيته عنك والسبب وراء التغيرات التى اعترتنى تجاهك .. وحال التمزق التى كنت أعيشها طوال الأيام الماضية .

لقد أردت أن أصارحك اليوم بكل شىء لأننى لم أعد قادرة على الاستمرار فى تنفيذ أوامرهم وخداعك .. رغم كل ما يمكن أن يؤدى إليه ذلك من نتائج .

أريدك أن تعرف فقط أننى كنت صادقة ومخلصة تمامًا فى كل ما يتعلق بعاطفتى نحوك وإن كنت لا أستطيع ولن أستطيع أن أسامح نفسى على الدور الذى اضطررت لأن ألعبه معك .

ظل صامتًا لبرهة قبل أن يقول لها بهدوء :

ـ كنت أعلم ذلك .

نظرت إليه بدهشة قائلة :

ـ كنت تعلم .

هز رأسه قائلاً :

ـ أجل علمت به مؤخرًا .. وكنت أنتظر أن تصارحينى بالحقيقة التى تخفينها وأدعو الله أن تفعلى لا شىء سوى ما كنت آمله من أنه لا يخيب رجائى فيك .

ولأن قلبى كان يرفض أن يصدق أنك تخدعينى وأن الحب الذى عاد ليتجدد بيننا لم يكن سوى مجرد وهم تصورته .

كنت موقنًا أنه لا بد وأن هناك سببًا ما أقوى منك يضطرك لأن تتصرفى معى على هذا النحو .

ـ أنا أيضًا رفضت تصديق كل ما أخبرونى به عنك لإقناعى بمشاركتهم فيما يريدونه .

ـ وما الذى أخبروك به عنى ؟

★ ★ ★

الفصل التاسع

- قالوا إنك ساهمت فى سرقة وتهريب بعض الآثار العراقية الهامة التى كان يضمها المتحف العراقى وتم السطو عليها بعد الغزو الأمريكى مباشرة .. ويريدون اعتقالك لمعرفة مكان تلك الآثار والأشخاص الذين استولوا عليها وطريقة تهريبها إلى الخارج .

حاولوا أن يوهمونى بأنك شخص آخر غير (حسام) الذى عرفته ولست بتلك الصورة المثالية التى أحملها لك .. بل مجرد شخص محتال ونصاب تحول فى النهاية إلى مهرب للآثار .. وأنك انضممت لعصابة دولية متخصصة فى ارتكاب ذلك النوع من الجرائم .

أعترف أننى صدقتهم فى البداية .. فلديهم وسائل بارعة فى الإقناع .. لكن شيئاً ما بداخلى ظل يرفض الاقتناع بأن (حسام) الذى عرفته فى صباى يمكن أن يكون على هذا النحو الذى يصفونه به .. وإن كنت ما زلت أتساءل عن السبب الذى يجعلهم يسعون خلفك .

فهل لديك إجابة عن ذلك ؟

أطلق زفرة طويلة من صدره قبل أن يغمغم قائلاً :

- لقد سألتنى ذات مرة عما إذا كنت قد سافرت إلى (العراق) أم لا .

- وأنت أخبرتنى بأنك لم تفعل .

حدجها بنظرة طويلة صامتة قبل أن يشيح بوجهه قائلاً :

- لقد كذبت عليك .. فقد ذهبت إلى (العراق) بالفعل وبعد عام ونصف فقط من الغزو الأمريكى .

وقتها كنت أمر بظروف نفسية ومادية قاسية للغاية .

كنت قد فقدت وظيفتى وتراكمت علىّ الديون وتوفيت والدتى مما جعلنى أفكر فى الهجرة إلى الخارج .. لكننى لم أكن أملك حتى ثمن التذكرة .

وفى تلك الفترة ظهرت إعلانات فى الجرائد اللبنانية لبعض شركات الأمن والحراسة مجهولة المصدر تطلب فيها تعيين عدد كبير من موظفى الأمن للعمل لحسابها مقابل رواتب مالية مغرية وبشرط أن يكون للمتقدمين خبرة سابقة فى أعمال الأمن أو التدريب العسكرى .

ولأننى كنت قد أنهيت فترة التحاقى بالجيش اللبنانى منذ فترة قصيرة ضمن وحدة من القوات الخاصة اللبنانية فقد وجدت هذا العرض ملائمًا بالنسبة لى .

وأملت من خلال توظيفى فى إحدى تلك الشركات جمع مبلغ من المال يكفى لسداد بعض ديونى ومساعدتى على السفر إلى أوروبا .

لم ألق أية صعوبات فى الموافقة على تعيينى بالشركة الأمنية نظرًا لخبرتى العسكرية وتدريبى المميز .

لكن بعد فترة قصيرة من العمل تبين أن كل من عينوا بها تم ترشيحهم للسفر إلى (العراق) ليعملوا فى فرعها هناك ولحساب جهات أخرى من بينها شركات النفط العراقية .

اعترض الكثير منا على ذلك فى ظل الظروف القائمة فى (العراق) لكنهم خيرونا ما بين التعاقد والسفر فى مقابل حوافز إضافية ومرتبات ضخمة أو إنهاء كل تعاقداتهم معنا مما جعل بعضنا يتراجع عن الرفض وكنت أنا من بينهم لسببين .

أولاً .. حاجتى الشديدة للمال .. وثانيًا .. لأننى كنت آمل أن أتمكن من الوصول إلى مكانك والالتقاء بك هناك .

وكان جزء من التغرير بنا وإجبارنا على العمل لحساب الشركة الأمنية هو التوقيع على شروط جزائية فى عقود التعيين تتضمن سداد مبالغ مالية كبيرة للغاية كتعويض للشركة فى حالة إنهاء التعاقد من جانبنا أو عدم الالتزام ببنود العقد كاملة قبل انتهاء مدة التعاقد .

وهكذا أدركت فى النهاية أننى تورطت فى الأمر وأن الغرض من وراء العروض التى قدمتها تلك الشركات الأمنية والتى انتشرت إعلاناتها فى العديد من الصحف والمجلات العربية وقتها هو الدفع بالعديد من الأشخاص المدربين أمنيًا وعسكريًا لحماية المنشآت والجهات التى يرغب الأمريكيون وحلفاؤهم بحمايتها لتخفيف العبء على جنودهم وأجهزة الأمن التى تعمل لحسابهم والتى كانت تلقى ضربات موجعة من المقاومة العراقية وقتها .

وبالرغم من عدم رضائى عن هذا العمل إلا أننى لم أقوَ على الانسحاب أو التراجع .

لكن مع مرور الوقت تبين لى أنه حتى هذا العمل الكريه الذى قبلته على مضض كان أهون بكثير من الدور القذر الذى طلب منى تنفيذه فيما بعد .

فبعد شهرين فقط من عملى فى العراق بإحدى شركات النفط فوجئت باستدعائى لمقابلة شخص ما تبين لى فيما بعد أنه يعمل لحساب الاستخبارات الأمريكية وأنه يطلب منى المشاركة فى قيادة إحدى السيارات المفخخة والتى تحتوى على كمية كبيرة من المتفجرات لتفجيرها فى إحدى المناطق الشيعية المكتظة بالسكان مقابل مبلغ كبير يدفع لى فى حالة تنفيذ المهمة بنجاح .

لحظتها أدركت حجم الدور القذر الذى يلعبه هؤلاء لتمزيق النسيج الوطنى للعراقيين .

وأن المهمة المطلوب منى تنفيذها هى جزء من مخطط شيطانى يهدف إلى إشعال الفتنة الطائفية والمذهبية لتحويل العراق إلى أتون ملتهب لحرب أهلية مروعة .

وبالطبع كان سيطلب منى بعدها القيام بعمل مماثل فى منطقة سنية مكتظة بالسكان لتحقيق ذات الغرض .

وهكذا يتم تشويه دور المقاومة الوطنية الحقيقية وضرب العراقيين بعضهم ببعض بدلاً من اتحادهم فى مواجهة الاحتلال الأمريكى وأذنابه .

صمت برهة وهو يتلفت حوله حتى يتأكد أنه غير مراقب قبل أن يستطرد قائلاً :

ـ ولم أكن مستعدًا للمشاركة فى تلك الجريمة البشعة وتنفيذ المهمة التى طلبوها منى .

لكن فكرت أنه فى حالة الرفض الصريح فإنهم لن يتوانوا فى التخلص منى وقتلى بعد أن كشفوا لى عن مخططهم وأهدافهم وما يمكن أن يترتب عليه ذلك من فضح هذا المخطط الدموى أمام العالم .

خاص أن بعض زملائى اختفوا أيضًا فجأة وبدون مقدمات فى ظروف مشابهة .

لذا قررت أن أماطلهم وطلبت من ضابط الاستخبارات الأمريكى أن يمنحنى مهلة قصيرة من الوقت للتفكير فى الأمر فى الوقت الذى اتخذت فيه قرارى الحاسم بالهرب إلى خارج العراق والبدء فى التدبير لذلك .

كنت واثقًا أنه حتى لو نجحت فى الهرب فإنهم لن يتركونى بسهولة وسيلاحقوننى أينما ذهبت بعد أن أصبحت مصدر خطر بالنسبة لهم لذا استغللت موهبتى السابقة فى التعامل مع الإلكترونيات وقمت بتسجيل اللقاء

الثانى الذى جمع بينى وبين المسئول الذى سعى لتجنيدى من أجل القيام بهذه العملية صوتًا وصورة بعد أن استدرجتهم للإفصاح عن كل تفاصيل العملية المراد منى تنفيذها .

وبذلك أصبح لدى دليل قاطع وموثق على جريمتهم البشعة والمؤامرات التى يحيكونها .

وتمكنت من طبع هذا التسجيل على عدد من السيديهات ، ثم بدأت فى تنفيذ خطة الهرب بعد أن أتلفت المتفجرات وألقيت بها فى الماء .. لكنهم قبضوا على قبل أن أتمكن من الهرب وعبور الحدود وهددونى بالقتل فأعطيت لهم إحدى السيديهات وهددتهم بدورى أنه فى حالة عدم الإفراج عنى وسماحهم لى بمغادرة العراق خلال أربع وعشرين ساعة فإن صديقًا لى فى الخارج سيعرض نسخة ثانية من السى دى فى إحدى القنوات الفضائية على الملأ وأمام كل وسائل الإعلام الدولية لفضح مؤامرتهم .

تَرددوا فى البداية .. لكن أوامر عليا صدرت بالإفراج عنى والسماح لى بالسفر بعد أن أدركوا جدية ما أقوله .

وكما توقعت لم يتوقفوا عن ملاحقتى فى الخارج وتعقبونى فى فرنسا فى محاولة للعثور على أى خيط يقودهم إلى الشخص أو الجهة أو بقية النسخ الموجودة من السيديهات ، ثم التخلص منى بعدها .

والحقيقة هى أننى لم أكن قد أرسلت أية نسخ إلى الخارج لكنى لجأت لتلك الحيلة لأؤمن نفسى ونجحت فى ذلك بالفعل .

لكنى كنت مدركًا أنهم آجلاً أم عاجلاً سيعرفون أنه لا وجود لهذا الشخص الذى ادعيته مما يجعلهم يقومون بتصفيتى بعد الاستيلاء على كل ما بحوزتى من السيديهات .

مما دعانى للتفكير فى اللجوء إلى جهة أخرى قوية يمكنها أن توفر لى الحماية التى أحتاجها .

جهة يهمها الحصول على نسخة من السى دى ليمكنها استخدامه فى خدمة أغراضها السياسية .

وهكذا لجأت إلى السفارة الروسية فى فرنسا حيث دبروا لى لقاء مع مسئول كبير فى الاستخبارات الروسية والذى استمع لى بعناية بعد اطلاعه على السى دى وتمت الموافقة على توفير الحماية المطلوبة لى .. بل وتأمين حياتى المعيشية أيضًا بشرط أن أعطيهم كل النسخ التى لدى وألا ألجأ إلى استخدام أى نسخة أخرى قبل أن يسمحوا لى بذلك .

ولم أجد مناصًا من قبول العرض .

لكنى سرعان ما اكتشفت أن هؤلاء الذين لجأت إليهم طلبًا لحمايتى لا تعنيهم حياتى ولا حمايتى فى شىء بقدر ما يعنيهم استخدامى لتحقيق أغراضهم .. وأننى أصبحت جزءًا من لعبة سياسية واستخباراتية كبرى .

كنت مدركًا لشىء من هذا فى البداية بالطبع لكن الأمر تعدى كونى ورقة رابحة يريد أن يستخدمها الروس فى مواجهة الأمريكان إلى السعى لتحويلى إلى عميل لهم .. ليس وحدى ولكن أنت أيضًا .

نظرت إليه بدهشة قائلة :

- أنا .

- أجل .. فقد علموا بالمهمة التى أرسلك من أجلها الأمريكان وحلفاؤهم إلى (فرنسا) فأرادوا منى بدورهم أن أكون الطعم الذى يصطادونك به ليقوموا بتجنيدك لحسابهم ومن ثم تحويلك لعميل مزدوج .

- كنت أظن أن الصراع بين الأمريكان والروس قد انتهى بنهاية الحرب الباردة .

- فى عالم السياسة والمصالح الاستراتيجية الكبرى فإن الصراعات والمناورات والمساومات لا تنتهى أبدًا مهما بدا على السطح من أشكال دبلوماسية تبعث على الثقة والتفاؤل .

وبالنسبة لى فأنا مدرك الآن تمامًا أن هؤلاء الذين سعيت للاستعانة بهم من أجل تأمينى لن يتورعوا لحظة واحدة عن تسليمى للأمريكان إذا ما اقتضت مصالحهم ذلك ويمكن أن أصبح فى أى وقت جزءًا من صفقة يتم الاتفاق عليها بين الطرفين .

ارتسمت ملامح القلق على وجهها وهى تقول :

ـ لقد أخطئت منذ البداية وكان يتعين عليك تنفيذ ما هددت به واطلاع العالم بأسره على مؤامرتهم الشيطانية .

فما أرادوه منك خطير للغاية ومروع وإذا كانوا قد فشلوا معك فلا بد أنهم نجحوا مع غيرك ممن باعوا ضمائرهم وإنسانيتهم .

فما زال الآلاف من الضحايا يقتلون بسبب تلك السيارات المفخخة وسط الأسواق وفى المساجد والكنائس والعديد من المناطق فى (العراق) والفتنة تزداد اشتعالاً يومًا بعد يوم فى بلادى التى تساق إلى حرب أهلية وطائفية يدفع الجميع ثمنها على نحو ما أراده هؤلاء المتآمرون .

وكان يمكنك فضح ذلك التآمر وما يخلفه من مجازر بطريقة أكثر فاعلية خاصة أن معك الدليل الموثق على ذلك .

ـ صدقينى كانوا سيقتلوننى قبل أن أتمكن من ذلك .

ـ هم أذكى من ذلك ويعرفون جيدًا عواقب الإقدام على حماقة كهذه .

كل ما كان بإمكانهم فعله هو استخدام كل حيلهم وأكاذيبهم لمحاولة دفع ذلك الاتهام عنهم وليس إثارة المزيد من الشبهات والرأى العام العالمى ضدهم .

ـ ومن قال إنهم كانوا سيسمحون لى بداية من الوصول إلى كاميرات التلفزة لكشف تلك الحقائق ؟ لقد شعرت بأنهم يترقبوننى بالقرب من كل مبنى إعلامى يمكن أن أقترب منه فى (فرنسا) .

بصراحة كل ما فكرت فيه هو أن أنجو بنفسى وأمارس حياتى بطريقة طبيعية بعيدًا عن كل ما يمكن أن يهدد حياتى ومستقبلى .

قالت له بشىء من الانفعال :

- هناك آخرون غيرنا يواجهون الموت فى (العراق) كل يوم ويضحون بحياتهم دفاعًا عن حريتهم وأوطانهم ومبادئهم .

- (دعاء) أنا لست بطلاً ولا أملك شجاعة هؤلاء الذين تتحدثين عنهم .. أنا شخص عادى يحب الحياة ويريد أن يعيشها .. ثم إننى لست عراقيًا لتطالبيننى بتلك التضحيات رغم تأييدى للشعب العراقى ونضاله فى مواجهة الاحتلال .

كل ما كان بإمكانى أن أفعله لأجل هذا الشعب هو ألا أكون جزءًا من المؤامرة الشيطانية التى يدبرونها ضده .. وكدت أدفع حياتى بالفعل ثمنًا لذلك .

- لكنه يبقى فى النهاية مجرد تصرف سلبى .. هل نسيت ما كنا نقوله ونحن صغار حول القومية العربية والوحدة العربية والوطن الأم الذى يضمنا جميعًا .

أليس (العراق) جزءًا من ذلك الوطن الذى كنا نحلم به وقتها ؟

وهل نسيت ما قلته لى من قبل ونحن فى (لبنان) ؟ أنه إذا تعرض (لبنان) للخطر فكلنا لبنانيون .. وإذا تعرضت مصر للعدوان فكلنا مصريون

وأننا شئنا أم أبينا نحمل فى صدورنا فرحًا عربيًا واحدًا .. وهمًا عربيًا واحدًا .. وحلمًا عربيًا واحدًا .

أليست تلك هى أفكارك ومبادئك التى جعلتنى أؤمن بها فى الصغر ؟

★ ★ ★

الفصل العاشر

أطلق زفرة طويلة من صدره قائلاً :

- كنا صغارًا .. وتلك الأفكار والشعارات التى تتحدثين عنها صارت جزء من الماضى .. ولم يعد لها وجود الآن .. فالعالم قد تغير يا (دعاء) .

- البعض لا يتغيرون بتلك البساطة التى تتحدث بها .. هناك أشياء ترسخ فى القلوب لا يسهل تغيرها .. وهناك آمال وأحلام لا يمكن أن نلقى بها وراء ظهورنا .

لقد افترقنا لسنوات طويلة تبدلت خلالها أشياء كثيرة فى حياتنا .. وظننا أن مشاعر كلٌ منا تجاه الآخر قد تبدلت معها .. لكن ها نحن قد عدنا للتلاقى لنجدها ما زالت باقية على ما هى عليه .

- هذا عن الحب .

- وكذلك عن الوطن والعروبة وكل ما كنا نؤمن به فى صغرنا قال لها مستطردًا وهو يبتسم :

- أنت ترسمين للعالم حولنا صورة رومانسية غير حقيقية .

- أنا أتكلم عما أعرفه عنى وعنك .

- لم يكن هذا هو كلامك فى البداية .. أين ذهبت نقمتك على العرب الذين غزوا عن (العراق) وهو يتعرض للعدوان ؟

وماذا عن اتهامك لنفسك بأيثار السلامة بعيدًا عما يجرى فى بلادك والرضوخ لحياة آمنة ومستقبل ناجح فى (أسكتلندا) ؟

ـ لا أنكر شعورى بالمرارة لعدم وجود مساندة حقيقية من الدول العربية للعراق فى محنته .. لكن هذا كان بدافع من إيمانى بعروبتى ولأننى كنت أتوقع الكثير من شعوب هذه الأمة تجاه وطنى .

لكن سرعان ما تبين لى أننى كنت أنظر إلى الصورة من جانب واحد .. الجانب المظلم فقط .. فقد لمست الكثير من مظاهر المساندة ومناصرة الشعب العراقى والمقاومة العراقية خلال لقاءات كثيرة جمعتنى بالعديد من أبناء الدول العربية الإسلامية المختلفة الذين التقيت بهم فى أوروبا ومن خلال المظاهرات المؤيدة للعراق والتى شاركت فى بعضها وكذلك عبر وسائل الإعلام والمواقع الإلكترونية .

مما أكد لى أن هذه الأمة لم تمت أحاسيسها ومشاعرها ولم تفقد انتماءها بعد .. وما زالت حتى ولم تدرك ذلك تؤمن بالمصير الواحد لأمة واحدة .. وهذا هو الجانب المضىء الذى لم أنتبه له فى البداية .

أما ما قلته عن نفسى فلم يكن سوى نوع من جلد الذات لإحساسى بالذنب تجاه وطنى ..

لكنى لم أكن أملك من أمرى شيئًا ولم أكن لأفيد بلادى بشىء لو قدمت نفسى قربانًا للمحتلين وأذنابهم بأكثر مما كنت أفعله فى (أسكتلندا) من ندوات ولقاءات لشرح حقيقة ما يدور هناك ومن جانب آخر أردت من كلامى أن أوقظ ضميرك وأؤلمك حينما تصورت أنك شاركت بالفعل فى

جرائم الاحتلال بسرقة الآثار والتاريخ العراقى رغم أن شيئًا بداخلى كان يرفض ويصر على عدم تصديق ذلك .

وها أنا قد تأكدت من صدق إحساسى وأدركت أن ظنى فيك لم يخب كما توقعت .

مسح بيده على شعرها قائلاً :

- لم تفقدى نقاءك الذى عرفتك عليه بعد يا (دعاء) .

مالت برأسها على يده قائلة :

- أظن كل شىء قد أصبح واضحًا بيننا الآن بعد أن تصارحنا .

قطب جبينه قائلاً :

- لكن المأزق الذى نعيشه ما زال قائمًا . فمازلت مطالبة بأن تسلمينى إليهم أو تفقدين شقيقك إلى الأبد .

تنهدت بعمق وقد اعتراها الحزن وهى تغمغم قائلة :

- وأنا لن أسمح بتعرضك لأى أذى بسببى .

- إذن ما هو الحل ؟

- علينا أن ندبر للأمر .

★ ★ ★

توقفت سيارة سوداء فارهة فى منطقة قريبة من الحدود الأردنية العراقية ليغادرها ثلاثة أشخاص ضخام الجثة مفتولى العضلات .

حيث قام أحدهم بفتح الباب الخلفى من السيارة ليدلف إلى الخارج رجل متوسط القامة قصير الشعر على عينيه نظارة سوداء قاتمة العدسات .

لتلحق بهم سيارة أخرى من طراز شيروكى بها أربعة مسلحين .. سارعوا بمغادرتها ليأخذ كل منهم لنفسه موقعًا خلف الأشجار المحيطة بالمكان .

وعلى مسافة مائتى متر من المكان فى الجهة المقابلة كانت هناك ثلاث سيارات أخرى ترجل منها مجموعة من الأشخاص المسلحين والملثمين اختفوا بدورهم خلف الأشجار والصخور .

لم يكن هناك شك أن هؤلاء الأشخاص مدربون تدريبًا فنيًّا عاليًا لأداء المهمة التى أتوا من أجلها .

وبعد لحظات قليلة نزع الرجل ذو الشعر القصير النظارة عن عينيه ليضع بدلاً منها نظارة أخرى مكبرة قدمها له أحد أعوانه وهو يتأمل السيارة الزرقاء التى اقتربت لتتوقف على مسافة سبعين متر فى الجهة المقابلة مباشرة .

وقد غادرتها (دعاء) وهى تضع فوق عينيها نظارة ذات عدسات بنية

وما لبث أن خفض الرجل نظارته المكبرة وهو ينظر إليها بملامح متجهمة واضعًا هاتفه على أذنهِ ليحادثها :

ـ أرى أنك أتيت بمفردك .

قالت له بهدوء :

ـ هو لم يأت معى بالفعل .. بل سبقنى إلى هنا .

ـ أين هو إذن ؟

ـ أين أخى أولاً ؟

أومأ الرجل برأسه إلى أحد أعوانه فتوجه إلى السيارة ليخرج منها شاب نحيل الجسد مشعث الشعر تبدو عليه ملامح الإعياء الشديد .

وقد قبض على ساعده دافعًا به أمامه .

بينما عاد الرجل ليتحدث فى الهاتف قائلاً :

ـ ها هو شقيقك .

تناولت (دعاء) بدورها منظارًا مكبرًا لتنظر من خلاله إلى أخيها .. وقد خفق قلبها بشدة مرددة بصوت خافت النبرات :

ـ (علاء) .. الحمد لله .

عاد الرجل ليقول :

ـ حسنًا .. والآن أين الشخص المنشود ؟

أطلقت (دعاء) صفيرًا متقطعًا ظهر على أثره (حسام) من خلف عدة كتل صخرية متلاصقة ليقف بجوارها .

ـ ها هو الشخص الذى تريدونه .. الآن دعنا نقوم بالتبادل وفقًا للشروط التى اتفقنا عليها .

سيأتى (علاء) إلى هنا وبمفرده مقابل ذهاب (حسام) إليكم على أن يتم ذلك بخطوات محسوبة .

كل بضعة خطوات يخطوها (علاء) نحوى يقابلها نفس العدد من الخطوات التى سيخطوها (حسام) ليتم التبادل فى توقيت واحد .

سألها الرجل قائلاً :

ـ هل أتى صديقك طواعية ؟

ـ هذا أمر لا يعنيك .. المهم أننى أحضرته كما طلبتم .

ـ لكن أنا أيضًا لى شرط أتمسك به وأصر عليه .

ـ وما هو ؟

ـ لا مانع لدى من رحيل أخيك لكنى أريدك أن تأتى إلينا برفقة صديقك فى المقابل .

انفعل (حسام) قائلاً :

ـ كلا .. هذا أمر مرفوض .

بينما قالت (دعاء) بهدوء :

ـ نحن لم نتفق على ذلك .

قال لها ساخرًا :

ـ تستطيعين أن تعتبرى ذلك شرطًا إضافيًا فى اتفاقنا .

قال (حسام) بإصرار :

ـ لن أسمح لك بالذهاب إليهم .

فكرت قليلاً .. ثم قالت دون أن تأبه لإصراره :

ـ حسنًا .. دعنا نبدأ فى التحرك .

التقت (دعاء) بشقيقها فى منتصف الطريق ليلقى كل منهما بنفسه فى أحضان الآخر فى اشتياق وحنين جارف .

لكن هذا لم يحل دون أن تهمس فى أذنه قائلة :

- حينما تصل إلى سيارتى لا تتوقف بل واصل سيرك وأسرع الخطى دون أن تنظر خلفك وسيظهر لك من يحدد مسارك فيما بعد .

همس لها بدوره قائلاً :

- وماذا عنك ؟

- لا تقلق .. كل شىء سيكون على ما يرام .. سنلتقى مجددًا بأسرع مما تظن .

وتركته لتواصل طريقها برفقة (حسام) حتى أصبحا وجهًا لوجه أمام الرجل ذى الشعر القصير وأعوانه .

وقد انفرجت أساريره كاشفًا عن ابتسامة تهكمية وهو ينظر إلى (حسام) قائلاً :

ـ افتقدناك كثيرًا يا صديقى .. لكن ها نحن قد عدنا لنلتقى على أية حال .

قال له بهدوء :

ـ لا يمكننى الادعاء بأننى قد سررت بهذا اللقاء .. وأظن أننا سوينا كل الأمور العالقة بيننا فى آخر لقاء .

ـ بالنسبة لنا فالأمور لم تسوَّ بعد .

ودفعه أحدهم بمؤخرة سلاحه لركوب السيارة . لكنه قاومه ملتفتًا لغريمه وهو يقول :

ـ لقد أردتنى أنا .. وأنا مستعد للذهاب معك أينما تشاء أما هى فلا حاجة لك بها .. دعها تذهب لتلحق بأخيها .

لكنه جذبها من ذراعها بغلظة وهو يصوب إليها مسدسه قائلاً :

ـ هى أيضًا لم يسوَّ حسابها بعد .. ثم إن ضميرى لا يسمح لى بالتفرقة بين عاشقين مغرمين مثلكما .

ستكون هى ضمانتنا لتعقلك هذه المرة .. فلا أظن أنك سترضى بتشويه هذه الوجه الجميل لحبيبتك الحسناء .

قال له منفعلاً :

ـ وغد حقير .

قالت (دعاء) وهى تنظر إلى الرجل بازدراء :

ـ كنت واثقة أنكم ستغدرون بنا فى النهاية .. فهذا من شيمتكم .

ألصق فوهة مسدسه برأسها وهو يدفعها أمامه قائلاً :

ـ اللعبة مفتوحة يا عزيزتى وبدون قواعد .. ما يعنينا فى النهاية هو نتائجها .. هيا تقدم أمامى .

حاول (حسام) المقاومة مجددًا لكن الشخص الذى يصحبه ضربه بمؤخرة السلاح فى رأسه ليجبره على ركوب السيارة التى تقف على مقربة منهما .

وفى تلك اللحظة انطلقت فجأة رصاصة من مسافة غير بعيدة لتستقر فى رأس صاحب الشعر القصير وليخر على أثرها صريعًا .

وقد استغل (حسام) عنصر المفاجأة الذى أصاب أعوان الرجل بالارتباك ليسدد ضربة قوية بمرفقه إلى فك رفيقه .

وقد أتبعها بركلة أشد قوة منتزعًا السلاح منه .

وسرعان ما برز الرجال الملثمون من كل اتجاه ليحيطوا بالمكان ولتدور معركة ضارية بالأسلحة النارية بينهم وبين أعوان الرجل .

بينما سارع (حسام) بحماية (دعاء) ملقيًا بها أرضًا بعيدًا عن الطلقات المتبادلة بين الطرفين .. وقد أخذا يزحفان بعيدًا عن ميدان المعركة قبل أن ينهضًا ليواصلا طريقهما ركضًا من حيث أتيا .

وقد قفزا داخل السيارة التى أتت بـ (دعاء) لتنطلق بهما سريعًا .

★ ★ ★

الفصل الحادى عشر

استمرت السيارة فى مواصلة سيرها لمدة ثلث ساعة تقريبًا حتى وصلت إلى حيث توجد طائرة مروحية رابضة فى انتظارهما لينتقلا إليها وقد حلقت بهما على الفور .

وما إن استقرا بداخلها حتى وجدا (علاء) وقد عاد ليحتضن شقيقته بفرحة شديدة وكل منهما يهنئ الآخر على نجاته .

أشارت (دعاء) إلى (حسام) قائلة لأخيها :

- هل تعرف من هو هذا الشخص ؟

ابتسم (علاء) وهو يصافحه بحرارة قائلاً :

- وكيف أنسى جارنا وصديقنا القديم (حسام) .. صحيح تبدلت ملامحه كثيرًا لكنى لا أنسى تلك الابتسامة الودودة التى ميزته دائمًا .

قال (حسام) مبتسمًا بدوره :

- أما أنت فقد أصبحت مختلفًا كثيرًا عن ذلك الصبى الشقى النحيل الذى عرفته بعد أن صرت بتلك الملامح الرجولية والوسامة التى لا بد وأنها تجلب اهتمام الكثير من الفتيات .

أطرق (علاء) قائلاً بمرارة :

ـ سيدهشك أيضًا ما يمكننى أن أطلعك عليه من أثار التعذيب التى يحملها جسدى خلال فترة اعتقالى .. وإن كانت الآثار النفسية والمعاناة التى مررت بها هى الأكثر إيلامًا سترافقنى طويلاً .

ربتت (دعاء) على ظهره بحنان قائلة :

ـ ستعود إلى ما كنت عليه وأفضل وسأعمل على تعويضك عن كل هذا .. المهم أنك الآن بخير .

وتراجعت برأسها إلى الخلف وهى تغمغم مستطردة :

ـ الحمد لله لقد نجحنا .

نظر إليها (حسام) قائلاً :

ـ نجاح مؤقت .. فالخطوة القادمة هى الأهم والأخطر .. وأرجو من الله أن يساعدنا على اجتيازها بأمان .

★ ★ ★

وفى اليوم التالى كان العالم يشاهد ويسمع على المحطات الفضائية (حسام) و(دعاء) و(علاء) وهم يسردون الحقائق والأحداث التى تعرضوا لها والأسرار الخفية لما يحدث فى (العراق) .

وقد قام (حسام) بعرض محتوبات السى دى الذى سجله وخفايا بعض العمليات التفجيرية التى تتم فى مناطق متفرقة من (العراق) بهدف إثارة الفتنة الطائفية وتأليب العراقيين بعضهم على بعض .

وكذلك عرض (علاء) آثار التعذيب الوحشى الذى تعرض له على يد الأمريكيين .

كما أوضحت (دعاء) لإحضار (حسام) واعتقاله .

كاشفين بذلك حقيقة الدور الذى يلعبه العدوان الأمريكى بكل صوره وأهدافه ضد هذا البلد العربى الكبير وكذب الشعارات المزيفة التى ادعاها الأمريكان وحلفاؤهم عن الذهاب إلى (العراق) من أجل تدمير أسلحة الدمار الشامل والإتيان بالحرية والديمقراطية إلى هذه البلاد ودعاوى الإنسانية التى يتزنمون بها .

وسرعان ما فجر هذا الحوار والفيلم الوثائقى موجة من الاستنكار العالمى والغضب العارم فى كل أنحاء العالم .

واندلعت المظاهرات المنددة بالعدوان ومؤامرات الاحتلال الغاشم فى كل مكان .

بينما سارع المتآمرون بتجنيد أجهزة الإعلام التابعة لهم عاملين باستماتة لطمس الحقائق والتخفيف من الأثر الذى أحدثه ذلك اللقاء التليفزيونى .

وبعد أسبوعين من عرض هذا اللقاء الذى هز ضمير كل الشرفاء فى

العالم استلم (حسام) عمله فى المحطة الفضائية التى ظهر على شاشاتها .

كما انتقل (علاء) للإقامة فى (أسكتلندا) مع شقيقته .. حيث تعاقد مع إحدى دور النشر هناك لتأليف كتاب عن التجربة التى عاشها منذ اعتقاله .

ولم ينقض إلا وقت قصير حتى عقد قران (حسام) و(دعاء) فى حفل عرس بهيج حضره حشد كبير من مواطنِى الجاليات العربية المختلفة معبرين عن مدى حبهم وتقديرهم للعروسين .

وكأنه تكليل لذلك الحب الكبير الذى ربط بين قلبيهما بعد أن عاد القدر ليجمع بينهما من جديد .

واستلفت انتباه (حسام) من بين من حضروا حفل الزفاف ذلك الشخص الذى جاء ليصافحه ويهنئه بحرارة قائلاً :

ـ مبروك .. خالص تهانى يا صديقى .

شد (حسام) على يده قائلاً :

ـ أشكرك على كل ما قدمته .. فلولا الدور الذى لعبته أنت وبقية الرفاق من رجال ...

قاطعه الرجل قائلاً بصوت خافت :

- لا داع للاستطراد فقد قمنا بواجبنا فقط أما أنت فقد لعبت دور البطولة

ما قدمته على شاشة التلفاز .

هيا اذهب لعروسك فأنا أراها تبحث عنك هناك .

كان هذا الشخص هو أحد رجال المقاومة العراقية الذين قاموا بمهاجمة

جلاء الاستخبارات الأمريكية لتمكين (حسام) و(دعاء) وشقيقها من

هرب والعودة إلى أوروبا .

والذى تعرف عليه (حسام) خلال فترة تواجده فى بغداد وقبل سفره إلى

نسا ونشأت بينهما صداقة حميمة جعلته يستعين به وبرفاقه لتدبير خطة

هرب وإنقاذ (علاء) .

وبينما (حسام) فى طريقه للحاق بـ (دعاء) استوقفه شخص آخر كان

رفه جيدًا .. وهو أحد عملاء الاستخبارات الروسية قائلاً :

- مبروك الزفاف .

نظر إليه شذرًا وهو يقول :

- لا أظن أنك قطعت كل هذه المسافة إلى هنا من أجل تهنئتى بالزفاف .

قال الرجل بجدية :

- يؤسفنى أنك خالفت اتفاقنا معك وعرضت ذلك السى دى قبل أن نسمح لك بذلك .

رد عليه بجدية مماثلة قائلاً :

- لقد فعلت ما أملاه علىَ ضميرى وما كان يتعين على أن أفعله منذ البداية .. أما اتفاقنا فقد أصبح ملغى ..

- ونحن أخبرناك من قبل أنك لا تستطيع أن تلغى اتفاقًا أبرمناه معك دون الرجوع إلينا .. لقد خدعتنا وأغضبتنا كثيرًا مسيو (حسام) وهذا ليس بالأمر الهين كما تظن فنحن لسنا أقل خطرًا عليك من الآخرين وعقابنا ليس أقل قسوة .

نظر إليه (حسام) بتحد قائلاً :

- هل جئت لتهنئنى أم لتهددنى ؟

- بل لأحذرك .

- كنت أعرف أننا سنلتقى حتمًا آجلا أم عاجلاً ..

وأعرف أيضًا أنكم لن ترفعوا أيديكم عنى بسهلة .. أريدك أن تسمعنى جيدًا مسيو (كاربوف) .. أنا لم أتعرض حتى الآن فيما سردته على شاشات التلفاز لأى شىء يتعلق بالدور الذى لعبتموه معى فى تلك الأحداث .. ولم أحاول الإساءة إلى المظهر الدبلوماسى الذى تحرصون على التظاهر به

أمام العالم والأمريكيين خاصة .

لكن هذا لا ينفى أننى سجلت بعض مقابلاتنا والمناقشات التى تمت بيننا واحتفظت بها فى عدة أماكن بعيدة لدى بعض الأصدقاء .. وأريد أن أضيف شيئًا آخر .

وأشار إلى المشخص الذى يقوم بتصويرهما بكاميرا الفيديو بين عدد من مصورى الحفل مردفًا :

- وسيضاف لتلك التسجيلات بالطبع ذلك اللقاء الحميم بيننا لإذاعة وعرض كل ذلك فى حالة تعرضى أو تعرض أى شخص يمت لى بصلة لأى ضرر .

فالتعليمات الصادرة إلى من بحوزتهم التسجيلات تقضى بتقديمها على الفور إلى عدة قنوات فضائية ليكون هذا هو الجزء الثانى من لعبة القوى العظمى التى تلعبونها على مسرح الأحداث فى العالم مع الأمريكان دون الرجوع إلى أحد ودون انتظار .

وأظن أن ذلك سيشكل ضررًا بالغًا بالنسبة لكم .. ويمكنك أن ترجع إلى رؤسائك وتسألهم فى هذا الشأن .

احتقن وجه الرجل بشدة وبدت عليه ملامح الغضب وهو ينظر إليه بعينين تتطاير منهما الشرر .

بينما قابل (حسام) غضبه بابتسامة تهكمية قائلاً :

ـ اعذرنى يا صديقى فالمصلحة الشخصية اقتضت أن آخذ حذرى وأحتاط لما يمكن أن تفعلوه بى .. ولا تنس أنكم أنتم الذين علمتمونى ذلك .

قال له غاضبًا :

ـ لولانا لكنت الآن فى عداد الأموات .

ـ وأنا أشكركم على ما قدمتموه لى من مساعدة .. وأظن أنكم أيضًا راضون بعض الشىء عن كشفى للوجه القبيح لعدوكم التقليدى .. خاصة بعد أن تحدثوا كثيرًا عن تلك القوة المفرطة التى تستعملونها فى حربكم فى الشيشان ووجهوا لكم العديد من الاتهامات بشأن انتهاكات حقوق الإنسان فى بلادكم .

وذلك الحديث التليفزيونى الذى أجريناه منحكم ورقة تجعلكم متعادلين قليلاً فى هذا الشأن .

ويجعلنا متعادلين أيضًا فى نفس الوقت .

لقد ساعدتمونى وأنا أيضًا خدمتكم بشكل مباشر أو غير مباشر ومن الأفضل أن تنتهى العلاقة بيننا عند هذا الحد .

وعاد ليرسم الابتسامة على شفتيه مستطردًا :

ـ أشكرك على التهنئة .

www.riwaya.ga

ثم تركه وانصرف عائدًا إلى عروسه .. والتى أسرعت لتتعلق بذراعه قائلة :

- أين كنت كل هذا الوقت ؟ ومن هذا الذى كنت تتحدث معه ؟

لف ذراعه حول خصرها ليراقصها قائلاً :

- مجرد شخص جاء ليهنئنى بالزواج وتحدث معى بشأن تصفية بعض الحسابات القديمة بيننا .

نظرت إليه باستغراب قائلة :

- تسوية حسابات فى ليلة كهذه .

ابتسم لها قائلاً :

- على أية حال فقد أنهيت الأمر معه وسوينا كل شىء .

بطريقة مرضية تطلعت إليه قائلة :

- (حسام) .. أما زال هناك ما تخشاه ؟

قال وهو يتمعن فى وجهها :

- أجل .. عيون الحاسدين فقد ظفرت بعروس فاتنة .

ضحكت قائلة :

- لابد أنهم لا يحسدوننى أنا أيضًا على فوزى بهذا الفارس الوسيم .

قال لها مبتسمًا :

ـ إذن فليموتوا بغيظهم .. المهم أن القدر أتاح لكلانا أن يحظى بالآخر وتحقق حلمنا القديم .

ـ ما زال لدى حلم بأن ينال (العراق) حريته قريبًا ويعود لينعم بالأمن والسلام .

ـ أنا واثق أن تلك الأمنية ستتحقق قريبًا جدًا ووقتها سنزوره سويًا .

وسرعان ما أحاط بهم المدعوون ليشاركوهم الرقص والتهنئة .

★ ★ ★

« تمت بحمد الله »

لتحميل المزيد
من الروايات الحصرية
www.riwaya.ga

www.riwaya.ga

السلسلة التى لا يجد الأب أو الأم
حرجًا من وجودها بالمنزل

124

شريف شوقى

وعدنا لنلتقى

وبقيت أحلم رغم عدم معقولية الحلم بأن الحياة ستجمع بيننا مرة أخرى .

وها نحن قد التقينا .. لكن من المتيقن أننا سنفترق ثانية .. وهذا إحساس لا أرغب فى معايشته وتحمل تبعاته مجددًا

5/1/017

www.rewayatmasreya.com

facebook.com/rewayatmasreya

الخط الساخن

www.riwaya.ga